
روايات مصرية للجيب
رجل المستحيل
الأبطال
134
د. نبيل فاروق
رياحين
www.liilas.com/vb3
المؤسسة العربية الحديثة

الأبطال

- هل يمكن أن ينجح فريق (أدهم) في الإفلات من مصيدة الموت، وسط جليد (موسكو) ؟!
- ما مصير (أدهم) وفريقه، عندما تحدث المواجهة الكبرى، بعيدًا عن الحدود ؟!
- ترى من ينتصر في النهاية.. (المافيا) الروسية، أم فريق (الأبطال) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل.. (رجل المستحيل)..



العدد القادم

٩



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل

سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

134

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لست لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و (المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ـ الدم ..

ارتسمت ابتسامة هادئة، على شفتى رجل المخابرات المصرى، الذى استقبل مدير المخابرات فى مطار (القاهرة)، وصافحه فى حرارة، قائلاً:

ـ حمداً لله يا سيّدى .. لقد كانت رحلة سريعة للغاية.

أشار مدير المخابرات بيده، وهو يلتف إلى سيارة الجهاز، قائلاً:

ـ أنت تعرف رحلات السيّد رئيس الجمهورية .. كل شىء يتمّ فى حزم وسرعة، ثم إن سيادته سيلقى خطابه السنوى، أمام مجلسى الشعب والشورى بعد غد، وهو أمر لا يمكن تأجيله.

جلس رجل المخابرات إلى جواره، وهو يغمغم:

- كان الله فى عونه .

تمتم المدير ، والسيارة تنطلق بهما :

- كلنا لدينا مسئوليات جسام .

ثم سأله فى اهتمام :

- هل توصلتم إلى جديد ، بشأن تلك العملية الإرهابية ، التى ينتظر القيام بها هنا ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- الإرهابى (نيكولاس ديمترى) هنا ، ونحن نراقبه طوال الوقت ، ولكن يبدو أنه مجرَّد فخ ، لجذب انتباه الكل ، بعيدًا عن العملية الفعلية .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول :

- آه .. نظرية الذباب ووعاء العسل الشهيرة .

واعتدل فى مجلسه ، وهو يفكِّر بعض الوقت فى عمق ، قبل أن يسأل :

- وماذا عن (أدهم) ، وعملية (موسكو) ؟!

أطلق رجل المخابرات من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، وهو يجيب :

- يبدو أن الأمر معقَّد للغاية هنا ، فمراقبونا اضطروا إلى الانسحاب ، مع تساقط الجليد ، ولكن آخر ما أبلغونا به ، هو أنه هناك قتال عنيف يدور فى قصر (إيفانوفيتش) وحوله ، و ...

روى له باختصار كل ما حدث ، فى أثناء ساعات غيابه ، قبل أن يضيف فى توتر :

- الأكثر خطورة ، مع كل هذا ، هو أن سيادة العميد (أدهم) قد اختفى تمامًا .

انتفض المدير على مقعده ، وهو يهتف به :

- اختفى ؟! ماذا تعنى ؟!

أجابه رجل المخابرات متوترًا :

- بعد أخبار مذبحة (نيويورك) ، كان العميد (أدهم) غاضبًا للغاية ، خاصة وأن (سونيا جراهام) هى التى أخبرته بأمرها .

انعقد حاجبا المدير فى غضب ، مع هذه المعلومة المستفزة ، فى حين تابع رجل المخابرات :

- ومع أخبار ظهور ذلك العميل المصرى فى (موسكو) ، وارتفاع احتمالات الخطر هناك إلى ذروتها ، تضاعف غضبه أكثر وأكثر ، ثم غادر مكتبه فجأة ، وذهب لمقابلة السيِّد (قدرى) ، وبعدها لم نعرف أين هو ، حتى هذه اللحظة .

هتف المدير فى غضب :

- يا للمجنون !

قالها ، وحاول عبثًا أن يسترخى فى مقعده ، وهو يستعيد الأحداث منذ بدايتها ..

منذ وصلت إلى المخابرات العامة معلومة مخيفة ،

تقول : إن منظمة غامضة ، تسعى للقيام بعملية إرهابية ضخمة ، داخل الحدود المصرية ، سيتولّى أمرها ثلاثة من أخطر زعماء الإرهاب العالميين ، بتمويل من تلك المنظمة المجهولة ، وبصفقة أسلحة ضخمة ، وردت عن طريق منظمة (المافيا) الروسية ، التى يتزعمها رجل المخابرات السوفيتى السابق (إيفان إيفانوفيتش) ، سفاح حرب (البوسنة) الشهير ..

ولأن (أدهم) هو أفضل من يتولّى عملية كهذه ، ولأن حالته الصحية لم تكن تسمح له بالنشاط والحركة والعنف ، فقد تم إسناد العملية إليه ، على أن ينتخب فريقًا خاصًا للقيام بها ، تحت إشرافه ومتابعته ..

وهنا وُلِدَ الفريق ..

فريق المستحيل ..

ثلاثة من أفضل العناصر الشابة ، فى المخابرات العامة ، انتقاهم (أدهم صبرى) بنفسه ، ليصنع منهم فريقه الجديد ..

وكجزء من خطته العبقرية ، بدأ فريقه عملية استفزاز (المافيا) الروسية ..

فريقه المكوّن من النقيب (علاء فريد) ، ضابط الصاعقة ، والملازم أوّل (ريهام صادق) ، وخبير الكمبيوتر والإلكترونيات (شريف نجيب) ..

وفوجئ (إيفانوفيتش) بأن بعضهم قد اخترق حسابه ، فى بنك (انجلترا) ، أكثر بنوك العالم أمنًا ومناعة ، واستولى منه على بضعة ملايين ..

وجنّ جنون الأب الروحى لمنظمة (المافيا) الروسية ، وأطلق رجاله كالكلاب المسعورة ، خلف فريق (أدهم) ..

وكان القتال عنيفًا للغاية ..

ولكن أفراد الفريق سقطوا فى قبضة (المافيا) الروسية ، طبقًا لخطة (أدهم) ، وتم نقلهم إلى (موسكو) باعتبارهم ثلاثة إخوة من (أمريكا الجنوبية)..

وحانت لحظة الاختيار ..

اللحظة التى راهن فيها (أدهم) بحياة أفراد فريقه كله ، على براعته وخبرته ، وقدرته على تحديد ردود أفعال الآخرين ..

وربح (أدهم صبرى) وفريقه الجولة الثانية أيضًا ..

وقرّر (إيفانوفيتش) الإبقاء على حياة الفريق ، للاستفادة من مهاراتهم ، بدلاً من القضاء عليهم ، انتقامًا مما فعلوه ..

انتصرت فى أعماقه طبيعة رجل الأعمال ، على وحشية الزعيم الإرهابى ..

تمامًا مثلما توقَّع (أدهم) ..

ولكن رجلاً مثل (إيفانوفيتش) ، لم يكن من الممكن أبدًا أن يمنح ثقته بسهولة ..

وبخاصة للقادمين الجدد ..

لذا ، فقد أخضع أفراد الفريق لاختبار تلو الآخر ..

اختبارات قاسية ، وعنيفة ..

وناجحة ..

وفى نفس الوقت ، الذى بدأ فيه (إيفانوفيتش) يمنح ثقته لأفراد الفريق ، كان (أدهم) يواجه مفاجأة جديدة فى (القاهرة) .. (سونيا جراهام) ظهرت فجأة ، وراحت تجرى اتصالاتها به ، عبر أحد هواتف الأقمار الصناعية ، على نحو مستفز ..

وغير مفهوم ..

وفى الوقت ذاته ، كانت خطة (أدهم) تواجه تطورًا جديدًا ، فى قلب ثلوج (موسكو) ..

ومفاجئًا ..

العميل المسئول عن الشرق الأوسط ، فى منظمة (المافيا) الروسية ، الدكتور (رأفت كاظم) ، كان جار (علاء) منذ طفولته ..

ولهذا السبب وحده ، انكشف أمر الفريق ..

وخسر الجولة الثالثة ..

وكان عليه أن يخوض الجولة الرابعة ..

وسط الثلوج ..

وبينما (أدهم) يواجه كل هذا ، باغته (إيفانوفيتش) بعملية أخرى لم تكن متوقَّعة أبدًا بكل المقاييس ..

فاجأه بمذبحة رهيبة ، فى قلب (نيويورك)

تستهدف القضاء على دونا (كارولينا) بالدرجة الأولى ، ولكن كل ما فعلته هو أن سحقت (نادية) و(بترو) ، وأصابت (جيهان) بإصابات قاتلة ..

وهنا ، لم يعد باستطاعة (أدهم) الاحتمال ..

لم يعد باستطاعته أن يظلّ مشاهدًا ..

لقد اختار أن يعود مشاركًا ..

مهما كان الثمن ..

حتى ولو كان الثمن هذه المرة ، هو مستقبله ..

ومهنته ..

وحياته نفسها ..

وفى قلب ثلوج (موسكو) ، راح رجال (إيفانوفيتش) يطاردون فريق المستحيل بشراسة رهيبة ، وعلى رأسهم (ميرا) أولاً ، تلك القاتلة الروسية ، التى تنافس الجليد برودة ، ثم (بوريس) ثانية ، رجل الحرب الروسى القديم ..

وقاتل أفراد الفريق ..

وقاتلوا ..

وقاتلوا..

ثم لم يعد هناك مفرّ من المواجهة ..

وبينما ينطلقون عبر الجليد ، داخل واحدة من سيارات الدفع الرباعى ، الخاصة بمنظمة (المافيا) الروسية ، وبصحبتهم الدكتور (رأفت) نفسه ، وجد الكل هليوكوبتر (بوريس) فى مواجهتهم تمامًا ..

وبضغطة زر واحدة ، أطلق (بوريس) نحوهم صاروخًا مباشرًا..

وقاتلاً ..(*)

* * *

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الثلاثة الأولى .. (الحدود) ، (فريق المستحيل) ، و (نمور الثلوج) .. المغامرات أرقام (١٣١) ، (١٣٢) ، و (١٣٣)

ارتفع حاجبا (سونيا جراهام) ، فى دهشة تمتزج بالشك ، وهى تحدق فى وجه مستر (X) ، الزعيم الغامض للمنظمة الجديدة ، قبل أن ينعقد حاجباها فى شدة ، وتشعل سيجارتها الطويلة ، قائلة فى توتر :

- (باريس) ؟! وما الذى يدعونى إلى السفر إلى (باريس) ، على هذا النحو العاجل .. المفترض أن العد التنازلى لعملية (القاهرة) قد بدأ بالفعل ، والرجال كلهم هناك .

أجابها فى صرامة :

- مازلنا نحتاج إلى من يدير العملية من هناك .

نفثت دخان سيجارتها ، متسائلة فى حذر :

- ولماذا لاتديرها من هنا ؟!

مال على مكتبه ، قائلاً بصرامة أكثر :

- لأنك جعلت هذا أشبه بالانتحار .

انعقد حاجباها فى غضب ، فتابع بنفس الصرامة :

- رغبتك الحمقاء فى الانتقام من زوجك السابق وإذلاله ، جعلتك تقدمين على تصرف سخيف نزقى، كشف موقفنا ، وجعل الأنظار كلها تتجه إلينا .

لوحت بيدها الممسكة بسيجارتها ، قائلة فى غضب :

- إذن فأنت تريد منى أن أذهب إلى (باريس) ؛ فقط لأجذب الأنظار إلى هناك .

قال فى حزم صارم :

- أنت تدينين لنا بهذا .

نفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قائلة :

- لم أتصور قط أنه فى عالمنا يوجد مكان للترضيات .

أشار بيده ، قائلاً فى صرامة محتدة :

- أية ترضيات ؟! إنه عمل محض .. ستسافرين إلى (باريس) ، وتواصلين حديثك ، عبر هاتف الأقمار الصناعية ، مع المصريين .. أريدهم أن يلتقطوا موقعك هناك ، ويتأكدوا من أننا ندير كل أمورنا من (باريس)، وعندئذ يمكنك العودة إلى هنا .

صمتت بضع لحظات ، فى شك وتوتر ، قبل أن تقول :

- مهمة حقيرة ، بالنسبة لـ (سونيا جراهام) .

تراجع فى مقعده ، وقال بكل الصرامة :

- ولكنها ثمن عادل لحماقتك .

مطّت شفتيها فى حنق ، ونفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، وهى تقول :

- هل تدرك جيدًا أنه ليس من السهل أن تتلقّى (سونيا جراهام) الأوامر الصارمة من الآخرين ؟!

قال فى حزم :

- المنظمة لها زعيم واحد يا (سونيا) ، ولقد وافقت على هذا ، عندما قبلت مشاركتنا .

قالت فى حدة :

- يبدو أن هذا هو التصرف الأحمق بالفعل .

ثم أطفأت سيجارتها فى حنق ، مضيفة :

- ولكن لا بأس .. الحياة علمتنى أنه من الحكمة تجاوز لحظات الشدة ، حتى يحظى المرء بالنجاح فى النهاية .

بدا غاضبًا ، وهو يغمغم :

- يا للحكمة !

أشعلت سيجارة أخرى ، وهى تهز كتفيها ، متسائلة :

- متى أسافر إلى (باريس) ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ الآن .

انعقد حاجباها ، وهى تكرِّر فى عصبية :

ـ الآن ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ طائرتنا الخاصة تنتظرك فى المطار ، ومستعدة للإقلاع فى أية لحظة .. سيقلك سائقى الخاص إلى هناك فورًا ، و ...

قاطعته فى حدة :

ـ لست أحتاج إلى من يقلنى .. سأذهب بسيارتى الخاصة .

صمت لحظة ، وهو يتطلع إليها بوجه جامد ، قبل أن يغمغم :

ـ لا بأس .. سآمرهم بالإقلاع فور وصولك .

قالت فى عصبية :

ـ فليكن .

انعقد حاجباه فى غضب مكتوم ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى حدة ، ثم تطفئها فى عصبية واضحة ، قبل أن تغادر الحجرة ، وتصفق بابها خلفها فى عنف ..

ولثوان ، ظلَّ يتطلع إلى الباب الذى غادرته ، فى صمت غاضب ، قبل أن يلتقط سماعة هاتفه السرى الخاص ، ويوصله بجهاز تغيير الأصوات ، ثم يطلب رقمًا دوليًا ..

ولم تمض لحظات ، حتى أجابه الجنرال (كروجر) ، قائلاً :

ـ هنا الجنـ .. ا حم أقصد (كروجر) يا مستر (X) .

سأله الرجل فى صرامة :

ـ هل أعددت كل ما طلبته منك ؟

أجابه فى سرعة :

كل شىء تم إعداده ، كما طلبت بالضبط ياسيدى ، والرجال يعلمون ما الذى عليهم أن يفعلوه .

وصمت لحظة ، ثم سأل فى حذر :

ـ ولكن لماذا يا مستر (X) ؟!

قال (X) فى غضب هادر مستنكر :

ـ لماذا ؟!

ارتبك (كروجر) ، وهو يقول :

ـ ما قصدته هو لماذا هنا بالذات ؟! لماذا ليس عندكم فى ..

قاطعه (X) فى صرامة :

ـ ليس هذا من شأنك .. نفذ الأوامر فحسب .

امتقع وجه (كروجر) ، وهو يغمغم :

ـ بالتأكيد يا مستر (X) .. بالتأكيد .

فى نفس اللحظة ، التى أنهى فيها (X) اتصاله ، كانت (سونيا) تقود سيارتها ، وعقلها يحمل ألف سؤال وسؤال ..

تُرى لماذا (باريس) الآن ؟!

ولماذا لا تثق بما أخبرها به (X) ؟!

لماذا تشعر غريزة الأنثى فى أعماقها ، بخطر مبهم ؟!

لماذا ؟!

لماذا ؟!

أدارت الأمر فى رأسها عدة مرات ، وحاول عقلها أن يقنعها بأن كل شىء يمكن حدوثه فى (روما) ، كما يمكن حدوثه فى (باريس) ..

ولكن غريزة الأفعى ، الكامنة فى كيانها ، ظلت تصرُّ على العكس ..

وفى حزم متوتر ، التقطت سماعة هاتف سيارتها الخاص ، وطلبت رقمًا تدخره للطوارئ ، ولم تكد تسمع الصوت نصف النائم ، على الجانب الآخر ، حتى قالت فى صرامة :

ـ أنا (كاترين) .. هيا .. لقد انتهى وقت النوم .. هناك مهمة عاجلة .. عاجلة للغاية .

قالتها ، وانعقد حاجباها الجميلان فى شدة ، وتصاعدت غريزتها الوحشية فى أعماقها أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

لم يكد ذلك الصاروخ ينطلق ، من هليوكوبتر

(بوريس) ، حتى انحرف (علاء) بالسيارة ، فى حركة حادة غريزية ..

ومع انحرافه المباغتة ، تجاوز الصاروخ السيارة ، بسنتيمترات قليلة ، حتى إن (ريهام) قد شعرت بلفح نيرانه ، قبل أن يواصل طريقه ، متجهًا نحو فرق المطاردة مباشرة ..

وكانت مفاجأة لرجال (المافيا) الروسية ، الذين حاولوا الابتعاد فى سرعة ، ولكن الصاروخ ارتطم بالجليد ، وسطهم تمامًا ..

ثم انفجر فى عنف ..

وانعقد حاجبا (بوريس) فى غضب هائل ، عندما شاهد الصاروخ ينفجر وسط رجاله ، ويطيح بسبعة أو ثمانية رجال ، محدثًا ارتباكًا عنيفًا فى صفوف الآخرين ..

وبكل غضبه وثورته ، انخفض (بوريس)

بالهليوكوبتر ، إلى ارتفاع متر واحد عن الأرض ، ليواجه سيارة الدفع الرباعى ، التى مازالت تندفع نحوه بأقصى سرعتها ، صارخًا :

ـ اذهبوا إلى الجحيم .

وضغط زر الإطلاق مرة أخرى ..

وانطلق الصاروخ الثانى ..

ومرة أخرى ، حاول (علاء) أن ينحرف بالسيارة ؛ لتفادى الصاروخ ..

ولقد نجح فى الانحراف بالمقدمة بالفعل ..

وتجاوز الصاروخ السيارة ، و ...

وارتطم بالجليد ، على مسافة مترين فحسب منها ..

ودوى انفجار آخر ..

ومع الانفجار ، قفزت السيارة المصفحة القوية إلى أعلى ، ودارت حول نفسها فى مشهد مخيف ،

قبل أن ترتطم بالأرض فى عنف ، وتنزلق لثلاثة أمتار ، و (بوريس) يصرخ فى ظفر :

ـ آه .. لقد فعلتها .

ومع النيران ، التى اشتعلت فى مؤخرة السيارة ، توقف رجال (المافيا) الروسية ، يلملمون أنفسهم ، ويستعيدون أسلحتهم ، وهم يتطلعون إلى الموقف ، باعتبار أن المطاردة قد انتهت تمامًا .

ولكن فجأة ، وثب (علاء) خارج السيارة ، واندفع نحو الهليوكوبتر ، ثم تبعته (ريهام) ، فى سرعة مدهشة ، جعلت عينا (بوريس) تتسعان فى دهشة عارمة ، وهو يجذب عصا القيادة ، هاتفًا :

ـ يا للشياطين !

كانت الهليوكوبتر على ارتفاع متر واحد من الأرض ، عندما انقضَّ عليها (علاء) و(ريهام) فى آن واحد ، من الجانبين ، فصاح قائد فرقة الدراجات

الآلية الجليدية ، عندما شاهدهما يقتحمانها ، فى نشاط مدهش :

- هجوم .

فى نفس اللحظة ، التى أدار فيها رجاله محركات دراجاتهم ، واندفع فيها رجال الفرقة المتزلجة على زحافاتهم ، اختطف الدكتور (رأفت) مدفع (شريف) الآلى ..

حدّق فيه (شريف) بدهشة ، والدماء تنزف من جرح فى جبهته ، من أثر انقلاب السيارة ، فهتف الرجل فى عصبية :

- اذهب للحاق برفاقك .. سأحمى ظهرك .. هيا .. لا وقت للتردُّد .

لم يكن هناك بالفعل وقت للتردُّد ، لذا فقد تعلّق (شريف) بنافذة الجانب العلوى للسيارة ، ودفع جسده عبرها ، والدكتور (رأفت) يضيف ، ودموع الندم تغمر وجهه :

- اطلب من (علاء) أن يغفرلى ، وألا يذكر أبدًا سوى أننى فعلت هذا من أجله .

وثب (شريف) خارج السيارة ، وشاهد (علاء) يسيطر على الهليوكوبتر ، التى مازالت على ارتفاع متر واحد من الأرض ، و (ريهام) تضرب (بوريس) بكعب مدفع آلى ، لتلقيه خارج الهليوكوبتر .

وفى نفس اللحظة ، انهالت رصاصات فرق المطاردة كالمطر ..

وتلقّى جسم السيارة المصفّحة معظم الرصاصات ، لأنه يحول بين الفرقتين والهليوكوبتر ، وشعر (شريف) بآلام مبرحة فى فخذه المصابة ، ورأسه الذى بدا بالنسبة له ، أشبه بوعاء يرتجّ داخله مخه بمنتهى العنف ، وصاحت به (ريهام) ، وهى تصوّب مسدسها نحو (بوريس) :

- أسرع يا (شريف) .. أسرع .

عضَّ (بوريس) شفتيه فى غضب هادر ، ومسح خيط الدم ، الذى ينساب من ركن شفتيه ، وهو يقول :

ـ لن يمكنكم الفرار إلى الأبد .

قالت فى صرامة :

ـ اترك لنا تقدير هذا .

عضَّ الروسى شفتيه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ كان ينبغى أن تطلقوا علىَّ النار مباشرة ، فستندمون أشدَّ الندم ، لبقائى على قيد الحياة .

هتفت فى حنق ، وهى تتابع (شريف) ببصرها ، وهو يعدو فى تهالك ، نحو الهليوكوبتر ، فى حين يدور راكبو الدراجات الجليدية الآلية ، حول سيارة الدفع الرباعى المقلوبة على جانبها ، للظفر به وبالهليوكوبتر ، وفريق المتزلجين يصوِّب إليه مدافعه الآلية ، فى الجانب الآخر ، و ...

وفجأة ، برز الدكتور (رأفت) من نافذة (الجيب) العلوية ، وهو يصرخ :

ـ لن تظفروا بهم أبدًا .

ومع صرخته ، انطلقت رصاصات مدفعه بكل غزارة ..

وكانت مفاجأة مذهلة للكل ..

وبالذات للنقيب (علاء) ..

ففى نفس اللحظة ، التى انعقد فيها حاجبا (بوريس) فى شدة ، واستدار فيها رجال (المافيا) الروسية ، للرد على ذلك الهجوم المباغت ، هتف (علاء) :

ـ مستحيل ! ما الذى يفعله هذا المجنون ؟!

بلغ (شريف) الهليوكوبتر ، فى هذه اللحظة ، وهو يلهث فى شدة ، قائلاً :

ـ إنه يحاول التكفير عن خيانته .

اتسعت عينا (علاء) لحظة ، وراودته فكرة التدخل ، لإنقاذ جاره القديم ، الذى اعتبره طيلة عمره بمثابة عمه ، إلا أن رجال (المافيا) الروسية ، الذين أسقطت رصاصات الدكتور (رأفت) العديدين منهم ، صوبوا قوانف القنابل نحو السيارة المصفحة ..

ثم أطلقوا قنابلهم ..

وبكل قوتها ، هتفت (ريهام) :

ـ ماذا تنتظر يا (علاء) ؟! هيا .. هيا ..

جذب (علاء) عصا القيادة ،وارتفعت الهليوكوبتر فى سرعة ، و (بوريس) يلوّح بقبضته خلفها ، صارخًا :

ـ لن تفلتوا منى أبدًا .

وفى نفس اللحظة ، التى انفجرت فيها السيارة المصفحة فى عنف ، وتطايرت شظاياها على

مساحة واسعة ، اضطر معها (بوريس) إلى الانبطاح أرضًا ، وحماية رأسه بذراعيه ، كانت الهليوكوبتر ترتفع عاليًا ، وتنطلق مبتعدة بأقصى سرعتها ، وخلفها سيل منهمر من الرصاصات ..

رصاصات (المافيا) ..

الروسية ..

* * *

« لقد استولوا على الهليوكوبتر مرة أخرى .. »

انعقد حاجبا (إيفانوفيتش) فى شدة ، واحتقن وجهه فى غضب ، عندما نطقت (ميرا) العبارة ، فى شماتة لم تحاول إخفاءها ، قبل أن تضيف ، وهى تختلس النظر إلى ملامحه :

ـ لايمكننى أن أصدق أن يحدث هذا مرتين فى ليلة واحدة .

قال فى عصبية :

ـ المصريون يجيدون اختيار عناصرهم .. هؤلاء الشبان بارعون بحق .

ثم أشار إليها ، قائلاً :

ـ ذكرينى أن نضيف نظام أمن خاصًا لطائراتنا ، بحيث يستحيل فتح أبوابها من الخارج ، فى أثناء تحليقها .. ينبغى أن نتيقَّن من استحالة تكرار ما حدث الليلة فى المستقبل .

أومأت برأسها إيجابًا ، وهى تقول :

ـ وماذا عن المصريين ؟!

صمت بضع لحظات ، قبل أن يسألها :

ـ تلك الهليوكوبتر هى التى زوَّدناها بجهاز تحكُّم عن بعد .. أليس كذلك ؟!

تألقت عيناها ، وهى تومئ برأسها ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

انعقد حاجباه فى شدة ، وأشار إليها بيده ، قائلاً :

ـ أعيديهم إلى هنا إذن .

ازداد تألُّق عينيها ، وهى تكرِّر :

ـ بالتأكيد .

وفى الهليوكوبتر ، هتف (شريف) ، وهو مازال يلهث بشدة :

ـ يا إلهى ! كم صرت أعشق طائرات الهليوكوبتر هذه .. لقد أنقذتنا من الموت مرتين الليلة .

هزت (ريهام) رأسها ، وهى تحاول الاسترخاء ، مع الآلام التى انتشرت فى جسدها كله :

ـ أما أنا ، فأعشق أحزمة الأمان فى السيارات ، فلولاها للقينا حتفنا حتمًا ، مع انقلاب السيارة .. يا إلهى ! لقد شاهدنا أهوالاً رهيبة الليلة .

ثم سألت (علاء) فى توتر :

ـ إلى أين تنطلق بالضبط ؟!

أجابها فى حزم مقتضب :

ـ (موسكو) ..

قالت فى دهشة ، مستنكرة :

ـ ألا يوجد بديل آخر ؟! كلنا نعلم أن (موسكو) بالتحديد هى منطقة نفوذ (إيفانوفيتش) ومنظمته .

أجابها بنفس الحزم :

ـ ولكنها مدينة كبيرة ، يمكن أن يذوب المرء فيها بسهولة ، ثم إنها أقرب منطقة مأهولة ، مع تساقط الجليد ، وصعوبة التحليق بالهليوكوبتر ، و ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو

يجذب عصا القيادة فى قوة ، فاعتدلت (ريهام) ، تسأله فى دهشة :

ـ لماذا تدور بالهليوكوبتر ؟!

أجابها فى توتر :

ـ لست أفعل هذا .

قال (شريف) فى حيرة :

ـ لست تفعله ؟! كيف يا صديقى .. الهليوكوبتر تدور بالفعل .

أفلت (علاء) عصا القيادة ، وأبعد يديه عنها ، وهو يقول :

ـ ليس بقيادتى .

اتسعت عيونهم فى دهشة ، عندما راحت عصا القيادة تتحرك ، من تلقاء نفسها ، والهليوكوبتر

تكمل نصف دورة ، ثم تنطلق وحدها ، عائدة إلى مهدها الأول ..

إلى قصر (إيفانوفيتش) ، الأب الروحى لمنظمة (المافيا) ..

الروسية .

* * *



٢ ـ السيطرة الكاملة ..

راجع مدير المخابرات ذلك الملف ، الذى قدمه له (أشرف) ، للمرة الثانية ، قبل أن يضعه على مكتبه ، ويسأل هذا الأخير فى اهتمام :

وماذا عن (هانز) و(شوكت) ؟! تقارير رجالنا فى (أوربا) تؤكد أنهم يتحركون معًا ، منذ ما يقرب من أسبوعين ، ومادام (نيكولاس) هنا للتعمية ، فمن المحتم أن زميليه قد أتيا ، للإشراف على تلك العملية أيضًا .

أجابه (أشرف) فى حزم :

ـ إننا نراجع قوائم الوصول ، من كل المنافذ يا سيدى .

نهض المدير من خلف مكتبه ، قائلاً :

- هذا جزء من العمل ، ولكن الجزء الأكثر خطورة ، هو أن نكشف طبيعة العملية نفسها .. معلوماتنا كلها ما زالت قاصرة عن كشف العملية نفسها ، وبدون تحديدها ، سنظل أشبه بالأعمى الذى يبحث عن قطة سوداء ، فى حجرة مظلمة .

تطلعت (منى) إلى خريطة (مصر) الكبيرة ، على جدار حجرة المدير ، وهى تقول :

- الاستعانة بثلاثة من أشهر زعماء الإرهاب ، تشير إلى أن العملية ضخمة للغاية ، كما أن صفقة الأسلحة ، بحجمها هذا ، تجعل أنظارنا تتجه حتماً إلى أحد منطقتين ، لا ثالث لهما .. (القاهرة) ، باعتبارها العاصمة ، التى تضمّ كل المراكز الحيوية الرئيسية ، والتى تتجه إليها أنظار الكل طوال الوقت .. أو (الأقصر) باعتبارها أفضل المناطق التى تكتظ بالسائحين صيفاً وشتاءً ، وأية ضربة عنيفة فيها ، سيكون لها صدى قوى ، فى العالم كله .

درس مدير المخابرات الاحتمالين فى ذهنه ، قبل أن يشير بسبابته ، قائلاً :

- الاحتمالان منطقيان وواردان بشدة .. والأفضل أن نتعامل معهما فى آن واحد .. سنطالب الشرطة وقوات الأمن بمضاعفة نظم الحراسة والمتابعة ، فى كل المناطق الأثرية والسياحية فى (الأقصر) ، أما هنا فلابد أن نبذل جهداً مضاعفاً ، فسيادة الرئيس سيلقى خطابه السنوى ، فى مجلسى الشعب والشورى بعد غد ، و ...

هتفت (منى) فجأة :

- يا إلهى !

انعقد حاجبا المدير بشدة مع هتافها ، فى حين اتسعت عينا (أشرف) عن آخرهما ، وهو يحدّق فيهما ، قبل أن يهتف الثلاثة فى آن واحد :

- الهدف ..

وتابع مدير المخابرات فى انفعال :

- كيف لم ننتبه إلى هذا منذ البداية ؟! وهل يوجد هدف أكثر أهمية وخطورة ، من الرئيس نفسه ؟!

هتف (أشرف) :

- ولكن كيف ؟! موكب الرئيس يحاط دومًا بأكبر قدر من التأمين والحراسة ، عبر مساره كله !!

قالت (منى) فى حزم :

- هذه هى المشكلة الرئيسية .. مسار الموكب .. إنه ثابت دائمًا ، ومحدد مسبقًا فى كل الأحوال ، بحيث يمكنك وضع خطة مستقبلية ، والتخطيط لها ، قبل عام كامل من القيام بها .

أما المدير ، فقال فى صرامة ، وهو يتحرك فى المكان بعصبية :

- هناك نقطة ضعف فى المسار حتمًا .. نقطة لم يلتفت إليها أحد ، فى أثناء وضع خطة الحراسة والتأمين .

أسرع (أشرف) يحضر خريطة (القاهرة) ، وفردها على المنضدة الكبيرة فى منتصف الحجرة ، وهو يقول :

- هذا هو خط السير كله .

والتقط قلمًا أحمر اللون ، ورسم مسار موكب الرئيس كله ، من (مصر الجديدة) ، وحتى مجلس الشعب ، وراح ثلاثتهم يدرسون المسار فى اهتمام ، والمدير يقول :

- على الرغم من ثقتى بكل الرجال ، الذين وضعوا خطة تأمين المسار ، إلا أن القاعدة الأولى ، فى عالم المخابرات ، تؤكد أنه ما من نظام أمنى محكم تمامًا .. هناك حتمًا ثغرة فى مكان ما .. ثغرة لم ننتبه نحن إليها ، وانتبه إليها الخصم .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- ومهمتنا هى أن نكشف هذه الثغرة ، بأسرع وسيلة .. وبأى ثمن .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يكمل بكل صرامة الدنيا :

ـ هل تفهمان ؟! بأى ثمن .

وعاد الثلاثة يدرسون مسار موكب الرئيس ..

ويدرسون ..

ويدرسون..

ويدرسون..

بلا كلل ..

وبلا هوادة ..

* * *

« مستحيل !»

هتفت (ريهام) بالكلمة ، فى توتر لا محدود ، وهى تحدّق فى عصا قيادة الهليوكوبتر ، التى تتحرك وحدها ، بسيطرة كاملة من مصدر خارجى ؛ لتقود

الهليوكوبتر فى طريق العودة ، إلى قصر (إيفانوفيتش) ..

إلى جحيم (المافيا)..

الروسية..

وفى عصبية واضحة ، قال (علاء) وهو يحاول عبثًا السيطرة على الهليوكوبتر :

ـ من الواضح أنهم قد أضافوا إليها جهاز تحكّم عن بعد ، لضمان السيطرة الكاملة عليها ، فى ظروف ما .

« إنه إجراء أمنى محض .. »

نطق (شريف) العبارة ، وهو يعتدل ، ويشير إلى عصا القيادة ، مكملاً فى حزم :

ـ جهاز سيطرة وتحكم ، يتم تثبيته فى قاع الهليكوبتر ، ويتصل بعصا التحكم ، وجهاز ضخ

الوقود ، والمروحة الرئيسية ، ومروحة الذيل ، ومهمته إلغاء عمل الطيار ، والسيطرة الكاملة على الهليوكوبتر ، وهو يُستخدم فى المعتاد ، لتوجيه الهليوكوبتر نحو أهداف عسكرية ، دون طيار .

سأله (علاء) بنفس العصبية :

- وهل توجد وسيلة لإبطال عمله من الداخل ، مثل الطيّار الآلى ، فى الطائرات الأخرى ؟!

هزّ (شريف) رأسه نفيًا وهو يقول :

- كلاّ للأسف .

ران عليهم الصمت لحظة ، ثم انتزعت (ريهام) قنبلة من حزامها ، قائلة فى حزم صارم غاضب :

- فليكن .. إننى أفضّل الموت ، عن الوقوع فى قبضة (إيفانوفيتش) ورجاله ثانية ، و ...

أمسك (شريف) معصمها فى قوة ، قائلاً :

- لدى وسيلة أفضل للموت .

ثم استدار إلى (علاء) قائلاً فى حزم :

- اترك مقعد القيادة لـ (ريهام) .

نزع (علاء) حزام مقعده ، وهو يقول :

- وما الفائدة ؟! (ريهام) لا تجيد قيادة الهليوكوبتر .

انتزع (شريف) حزام مقعده ، وراح يربطه حول وسطه فى إحكام ، وهو يقول :

- الأوغاد يسيطرون على الهليوكوبتر بالكامل ، ولسنا نحتاج إلى من يجيد القيادة .. كل ما نحتاج إليه هو شخص يمسك عصا القيادة بقوة ، فى اللحظة التى أنتزع فيها جهاز التحكم عن بعد .

هتفت (ريهام) بكل الدهشة ، وهى تحتلّ مقعد القيادة :

- أيمكنك هذا حقًا ؟!

ناول (شريف) طرف الحزام القوى لـ (علاء) وهو يقول بصوت مرتجف :

ـ يمكننى أن أحاول .

أمسك (علاء) طرف الحزام بكل قوته وهو يسأله فى عصبية :

ـ هل تدرك طبيعة الموقف بالضبط ؟! الهليوكوبتر تحلق على ارتفاع كبير ، والجليد ما زال ينهمر ، والبرودة تبلغ حداً مخيفاً فى الخارج ، وستتضاعف مع سرعة الرياح والهليوكوبتر ، و ...

قاطعه (شريف) فى حزم ، وهو يفتح باب الهليوكوبتر ، ويلتقط منها صندوق أدوات الطوارئ :

ـ وماذا ؟! هل سألقى مصرعى لو حاولت ؟! قل لى بالله عليك :

أهناك فارق بين أن أموت هنا ، أو هناك ؟!

عضت (ريهام) شفتيها فى توتر ، وحاولت منع دمعة متمردة من السقوط من عينيها ، فى حين انعقد حاجبا (علاء) فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ كلاً .. لا فارق .

كان الهواء البارد كالثلج يندفع داخل الهليوكوبتر ، على نحو مخيف ، عندما انزلق (شريف) خارجًا ، وتعلق بالقائم السفلى ، و(علاء) يمسك طرف الحزام بكل قوته ، متمتمًا :

ـ وفقك الله .

شعر (شريف) بأطرافه تكاد تتجمد ، وبالهواء الناشئ عن سرعة الهليوكوبتر يكاد يقتلعه من مكانه وهو يتشبث بصندوق الأدوات فى قوة ، وعيناه تبحثان عن جهاز التحكم عن بعد ، المثبت فى قاع الهليوكوبتر ..

ثم لمحه هناك .. أسفل كابينة القيادة مباشرة ..



تشبث (شريف) بالقائم الأيمن للهليكوبتر ، وحاول دفع جسده نحو الجهاز ..

كان عبارة عن علبة صغيرة ، فى حجم شريط فيديو عادى ، محاطة بغلاف من الزجاج القوى ، المضاد للرصاص ، ومثبتة فى القاع بأربعة مسامير قوية ..

وبكل قوته ، تشبث (شريف) بالقائم الأيمن للهليوكوبتر ، وحاول دفع جسده نحو الجهاز ..

ولكن هذا لم يكن ممكنًا ..

طرف الحزام ، الذى يمسك بـه (علاء) كان أقصر مما ينبغى ..

ومد (شريف) يده حتى أقصاها ..

ولكنه أيضًا لم يبلغ صندوق التحكُّم والسيطرة ..

وبكل قوته ، وبشفتين ارتجفتا بردًا ، هتف (شريف) :

ـ اترك الحزام .

خُيِّلَ لـ (علاء) أنه لم يسمعه جيِّدًا ، فهتف بدوره :

ـ ماذا تقول ؟!

صاح به (شريف) :

ـ اترك الحزام .. لا يمكننى بلوغ الصندوق .

انعقد حاجبا (ريهام) فى توتر ، وصاح (علاء) فى حزم :

ـ مستحيل ! مع هذه السرعة ، والرياح الباردة كالثلج ، والجليد المنهمر فى الخارج ، لن يمكنك الصمود لدقيقة واحدة .

صرخ (شريف) :

ـ قلت لك : اترك الحزام .. لاوقت لدينا للمحاورة .

هتف (علاء) بكل صرامة :

ـ مستحيل !

عضَّ (شريف) شفتيه فى غضب ، ثم انتزع حزام سرواله ، وأحاط به القائم الأيمن للهليوكوبتر ، ثم ربطه حول قدمه فى قوة ، قبل أن ينتزع من صندوق الأدوات أداة حادة ، هاتفًا :

ـ فليكن .

وبكل قوته مزّق طرف الحزام ، الذى يمسك به (علاء) و ...

وفجأة انقطع الحزام ، واختلَّ توازنه دفعة واحدة ، وصرخ (علاء) :

ـ لا ...

ومع صرخته ، هوى جسد (شريف) ..

هوى لحظة ، قبل أن يوقفه الحزام الآخر ، الذى يربط قدمه بالقائم الأيمن فى عنف ..

وارتطم الهواء البارد كالثلج بجسده كله فى قوة ، فارتفع مرة أخرى ..

وبكل لهفته وآلامه . قفزت يداه تتعلقان بالقائم الأيسر بمنتهى القوة ، و ...

ومع قفزته ، أفلتت أصابعه صندوق الأدوات ، فهوى من حالق ، وارتطم بقمم الأشجار ، قبل أن تتناثر محتوياته على الجليد ..

وامتقع وجه (شريف) بشدة ..

فسقوط صندوق الأدوات يعنى أنه قد فقد وسيلته الوحيدة ، فى الإفلات من السيطرة .. سيطرة (المافيا) الروسية ..

الكاملة ..

* * *

انعقد حاجبا (هانز) فى شدة ، وهو يشير إلى مسار الموكب ، قائلاً بكل حزم وصرامة :

ـ لن نترك فرصة واحدة للخطأ أو المصادفات ..

ثم رفع عينيه إلى الرجال الذين سيقومون بالمهمة ، مضيفًا :

ـ إنهم يستخدمون ثلاث سيارات للتمويه والتعمية ، وما دمنا نجهل فى أية سيارة منها سيكون الهدف بالضبط ، فسنوجه ضربتنا إلى السيارات الثلاث فى آن واحد .

سأله أحد الرجال فى اهتمام :

ـ هل نستعد قبل وصول السيارات بوقت كاف ؟!

هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلاّ .. لو فعلنا ، فسيدرك بعض رجال المراقبة الأمر ، وربما هاجموا حجراتكم ، قبل لحظة الصفر .

واعتدل (شوكت) فى مجلسه ، مضيفًا :

ـ لقد اتخذنا الحيطة لكل هذا .. ثلاثة من رجالنا سيندسون بين الجماهير ، على طول المسار ، وسيرسل كل منهم إشارة خاصة ، عندما يمر به

الموكب ، وهكذا يمكننا معرفة موقعه بالضبط ، وقبل ظهوره أمام الفندق بدقيقة واحدة ، سنعدّ أسلحتنا ، ثم نضرب ضربتنا فى آن واحد .

سأل رجل آخر :

- وماذا عن قوات الأمن المصاحبة للموكب ؟!

أشار (هانز) بيده ، قائلاً :

- ستكون هدف الضربة الثانية المركّزة ، والأسلحة التى ستستخدمها حديثة ومتطورة للغاية ، ويمكنكم إعادة شحنها وإطلاقها ، خلال ست ثوان فحسب .

قال أحد الرجال فى توتر :

- ست ثوان فترة كبيرة للغاية ويمكن أن يحدث فيها الكثير ، ففى محاولة اغتيال سابقة ، فى (أديس بابا) تمكّن رجال الحراسة الخاصة للرئيس ، من التصدى للمغتالين ، واحباط محاولتهم ، خلال ثلاث ثوان فحسب(*) .

(*) حقيقة ..

انعقد حاجبا (شوكت) فى شدة ، ولوّح (هانز) بيده ، قائلاً:

- فى هذه الحالة ينبغى أن نستخدم أربعة مواقع بدلاً من ثلاثة .

سأله الرجل نفسه فى توتر :

- وماذا عن الذخائر ؟! كيف يمكن إدخالها إلى الفندق ، مع وجود أجهزة كشف المعادن ، والبوابات الإلكترونية ، ورجال الأمن والحراسة .

ابتسم (شوكت) ، وهو يجيبه :

- تكنولوجيا تصنيع الأسلحة تتطوّر بسرعة مذهلة يا رجل ، وتتابع تطور نظم الأمن أيضًا ، والذخائر التى ستحصلون عليها ، هى أحدث وأفضل إنتاج ، لمصانع الأسلحة السرية فى العالم ، فهى صواريخ صغيرة الحجم ، مصنوعة بالكامل من الألياف الزجاجية ، المقاومة للحرارة حتى عشرة

آلاف درجة مئوية ، ولها قوة تدميرية مضاعفة ، ومن المستحيل أن تكشفها أجهزة الكشف التقليدية ، أو ينتبه إليها رجال الأمن ، وخاصة عندما تحملها معك ، داخل حقائبك العادية ، فى أثناء وصولك كنزيل فى الفندق .

وانعقد حاجبا (هانز) وبدا صارمًا واثقًا ، وهو يقول :

ـ ما أريدكم أن تعلموه وتدركوه جيدًا ، هو أن هذه العملية ، قد تم إحاطتها بكل وسائل التأمين والنجاح ، ولو أننا تسلمنا الصفقة فى موعدها ، لن يصبح بمقدور المصريين منعنا من المضى فيها ، مهما فعلوا .

وانتفخت أوداجه بزهو سادى مخيف ، وهو يضيف :

ـ العملية كلها تحت السيطرة .. السيطرة الكاملة .

* * *

لا يمكن أن ينتهى الأمر على هذا النحو ..

هذا ما انطلق فى أعماق (شريف) وهو معلّق بقائمى الهليوكوبتر ، والهواء البارد كالثلج يرتطم به فى عنف ، ويجمِّد أطرافه ، على الرغم من معطف الفراء ، والقفازات الجلدية ، بعد أن فقد صندوق الأدوات ..

وفى الهليوكوبتر ، هتفت (ريهام) :

ـ إنه مجنون !! مجنون بحق !!

أجابها (علاء) ، وهو يمسك طرف الحزام المقطوع فى قوة :

ـ إنه يبذل حياته من أجلنا .

صرخت :

ـ ومن طلب منه هذا ؟!

أجابها فى حزم عجيب :

- واجبه .

تجمّدت الدموع فى عينيها ، وهى تحدّق فيه ، قبل أن تنهار قدرتها على كبحها ، فتنهمر فى محجريها كالسيل ، وهى تقول :

- ولكنه مدنى .

أجابها (علاء) ، وهو ينتزع حزام المقعد الآخر ، ويربطه بقدميه فى قوة :

- إنه عضو بالفريق .

هتفت به مذعورة :

- ماذا ستفعل أنت أيضًا ؟!

أجابها بكل الحزم والصرامة :

- واجبى .

نطق كلمته ، فى نفس اللحظة التى أفلت فيها (شريف) أحد كفيه ، وأمسك به صندوق جهاز التحكم ، وهو يغمغم :

- رباه ! إننى أمسكه بيدى .. كيف يمكن أن أفشل ، بعد كل هذا ؟! كيف ؟!

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فجأة فى كم المعطف ، الذى تعلّقت به تلك الآلة الحادة ، التى قطع بها طرف الحزام ..

وبكل لهفته ، اختطف الآلة الحادة هاتفًا :

- حمدًا لله .. حمدًا لله .

ومن بعيد ، لاح قصر (إيفانوفيتش) والهليوكوبتر تقترب منه ..

وتقترب ..

وتقترب ..

وبابتسامة ظافرة ، قالت (ميرا) ، وهى تراقب الشاشة :

- الهليوكوبتر ظهرت .

غمغم (إيفانوفيتش) فى وحشية :

- عظيم .

حركت (ميرا) عصا شبيهة بعصى ألعاب الكمبيوتر ، وهى تقول :

- سأعمل على هبوطها فى الحديقة الخلفية .. هل نأمر الرجال بإطلاق النار عليها فور هبوطها ، أم نحاول إخراج المصريين منها حتى لا نتلفها .

قال فى صرامة :

- الهليوكوبتر لاقيمة لها .. مرى الرجال بنسفها فور هبوطها .

وانعقد حاجباه فى غضب ، مضيفاً :

- وفى المرات القادمة ، سنضيف إلى أية هليوكوبتر قنبلة ، يمكننا تفجيرها من هنا ، عند اللزوم .

ثم زمجر ، مكملاً :

- فيما عدا الهليوكوبتر الخاصة بى بالطبع .

ابتسمت (ميرا) فى خبث ، وهى تواصل توجيه الهليوكوبتر ، بسيطرة تامة :

- بالتأكيد أيها الزعيم .. بالتأكيد .

وفى الهليوكوبتر ، امتقع وجه (ريهام) ، وهى تقول :

- إننا نقترب من قصر (إيفانوفيتش) بسرعة ، والهليوكوبتر ما زالت تحت السيطرة الكاملة لهم .

صاح (علاء) ، من باب الهليوكوبتر المفتوح :

- (شريف) .. أأنت بخير ؟!

لم يستطع (شريف) إجابة صيحته ، وأسنانه تصطك ببعضها فى قوة ، من شدة الرياح والبرد القارس ، وأصابعه تعمل بأقصى سرعة ، لفصل جهاز السيطرة ، عن قاع الهليوكوبتر ..

كان يستخدم أداة غير مناسبة ، ويرتدى قفازات جلدية سميكة ، تعوق حركة أصابعه ، وأطرافه تكاد تتجمدُ بردًا ، والهليوكوبتر تواصل اقترابها من قصر الأب الروحى للمافيا الروسية أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم تجاوزت الأسوار بالفعل ..

وتألقت عينا (ميرا) ، وهى تقول :

- ظفرنا بهم .

أشار (إيفانوفيتش) بيده ، قائلاً فى حزم شرس :

- فليستعد الرجال .

ضغطت (ميرا) زرًا يجاور أجهزة التحكُّم ، قائلة :

- كل الرجال فى الساحة .. انسفوا الهليوكوبتر فور هبوطها .

ثم ضغطت الزر مرة أخرى ، لتنهى الاتصال ، وهى تهزّ رأسها ، قائلة :

- يا للخسارة ! إنها هليوكوبتر جيدة للغاية .

قال (إيفانوفيتش) فى صرامة :

- كل شىء يمكن تعويضه .

والتقى حاجباه ، على ذلك النحو ، الذى يجعله أشبه بالشيطان ، وهو يضيف :

- إلا موقع الصدارة ، فى عالمنا هذا .

نطقها ، وعيناه تتابعان شاشة الراصد ، التى تنقل مشهد الهليوكوبتر ، التى انخفضت سرعتها إلى حد ما ، وهى تستعد للهبوط فى حديقة القصر .. فى قلب الجحيم .

* * *

٢ ـ فريق المستحيل ..

لم تشعر (ريهلم) ، فى حياتها كلها ، بذلك المزيج من اليأس ، و الغضب ، والثورة ، والمرارة ، والإحباط ، والألم ، الذى شعرت به فى تلك اللحظة ، والهليوكوبتر تنطلق ، تحت سيطرة (ميرا) الكاملة ، فوق حديقة قصر (إيفانوفيتش) ، استعدادًا للهبوط فى قلب الجحيم ، وبين شياطين (المافيا) الروسية ..

إنها تشعر أنهم قد قاتلوا بكل طاقتهم ..

بكل مشاعرهم ..

وقوتهم ..

وخبراتهم المحدودة ..

ولكن من الواضح أنهم يواجهون قوة لا قبل لهم بها..

قوة جبارة ، عجزت دولة كاملة عن التصدّى لها ..

قوة تنظيم إجرامى رهيب ، يعتبره المراقبون أخطر التنظيمات الكبيرة ، التى عرفها تاريخ الشر ..

وما يؤلمها حقًا هو أنهم سيفشلون فى مهمتهم الأولى ..

المهمة التى انتخبهم من أجلها أستاذهم ، ومثلهم الأوحد والأعلى ..

الرجل ..

رجل المستحيل ..

و ...

وفجأة ، انتزع (شريف) جهاز السيطرة ، من قاع الهليوكوبتر ، صارخًا بكل ظفر الدنيا :

ـ فعلتها .

ومع انتزاع الجهاز المباغت ، فقدت الهليوكوبتر السيطرة الخارجية دفعة واحدة ، واختلّ توازنها على نحو مخيف ، فمالت فى عنف ، و(ريهام) تصرخ :

- رباه ! لست أجيد قيادة هذا النوع من الطائرات .

وثب (علاء) يلتقط عصا القيادة ، صائحًا :

- تماسكى .

كانت هى التي تجلس على مقعد القيادة لا هو ، والهليوكوبتر تترنح على نحو مخيف ، وهو يحفظ توازنه بصعوبة بالغة ، ويتشبث بعصا القيادة ، محاولاً السيطرة عليها ، و ...

وفى موقعها ، انعقد حاجبا (ميرا) ، وهى تقول فى عصبية :

- الهليوكوبتر خرجت عن السيطرة .

قفز (إيفانوفيتش) من مقعده ، صارخًا بكل غضب وثورة الدنيا :

- خرجت عن ماذا ؟!

كانت الهليوكوبتر تبدو على الشاشة ، وهى تترنح فى عنف ، وتميل على نحو بالغ الخطورة ، وهى تلتفّ بجانبها الأيسر نحو حديقة القصر ، على نحو يوحى بأنها سترتطم بالأرض فى عنف ، و ...

ولكن فجأة ، استعادت الهليوكوبتر توازنها ، واعتدلت مروحتها على نحو مدهش ، وترنّحت مرة أخرى ، وكأنها تعترض على ذلك التغير المفاجئ فى مسارها ، قبل أن تتوقف بغتة ، على ارتفاع ستة أمتار عن الأرض ، ويبدو (شريف) فى وضوح ، وهو معلّق بقائميها السفليين ، فانعقد حاجبا (إيفانوفيتش) فى شدة ، فى حين قالت (ميرا) بدهشة مستنكرة :

- ما هذا بالضبط ؟!

ازداد انعقاد حاجبى (إيفانوفيتش) لحظة ، بدا

الهليوكوبتر خلالها ترتفع ، فوثب هو إلى جهاز الاتصال ، وضغط زره ، صارخًا :

- إلى كل الرجال .. أطلقوا النار .. فورًا .

وبكل سرعتهم وقوتهم ، انطلق الرجال نحو الهليوكوبتر ، وهم يطلقون النار بكل غزارة وسخاء ..

ومن موقعه ، صرخ (شريف) والرصاصات ترتطم بالهليوكوبتر من حوله :

- ارتفع يا (علاء) .. ارتفع بأقصى سرعة بالله عليك .

جذب (علاء) عصا الهليوكوبتر أكثر ، وزاد من سرعتها ، فارتفعت بحركة حادة ، ومالت جانبًا لتفادى الرصاصات ، وهى تدور حول نفسها ، وتنطلق نحو الأسوار مرة أخرى ..

وعبر جهاز الاتصال ، صرخ (إيفانوفيتش) :

- الصواريخ المضادة للطائرات .. أطلقوا الصواريخ .

ولكن الهليوكوبتر انطلقت بأقصى سرعتها ، فى محاولة لتفادى النيران ، وشعر (شريف) بالجليد يرتطم بجسده ، وبهواء عنيف يكاد يقتلعه من مكانه ، فحاول أن يرفع يديه لحماية وجهه ، وهو يصرخ :

- رباه ! هذا أعنف مما ينبغى .

ارتطم الجليد بوجهه فى عنف أكثر ، وتضاعفت قوة الرياح ، مع سرعة انطلاق الهليوكوبتر ، وصاحت (ريهام) فى هلع :

- رباه ! لن يحتمل (شريف) هذا .

كان (إيفانوفيتش) لحظتها يصوِّب الصاروخ نحو الهليوكوبتر ، التى بدت كنقطة مضيئة على شاشة رداره الخاص ، وهو يغمغم فى غضب :

- كم أبغض تكرار الأمر الواحد مرتين ، فى ليلة واحدة .

وضغط الزر ..

وانطلق الصاروخ ..

وفى لحظة انطلاقه ، ارتطمت كتلة كبيرة من الجليد بوجه (شريف) وجسده ، فاختلّ توازنه ، وأفلتت ذراعيه من قائم الهليوكوبتر الأيسر ، فسقط جسده فى عنف ، وتعلّقت ساقاه بالقائم الأيمن ، و ...

وفجأة ، انقطع الحزام المحيط بساقيه ، من شدة الضغط ..

وبلا مقدمات ، وجد (شريف) نفسه يهوى من حالق ، والصاروخ الذى أطلقه (إيفانوفيتش) يتجه نحو الهيلوكوبتر ...

مباشرة ..

* * *

« أين ذهب (أدهم) يا (قدرى) ؟! »

ألقى مدير المخابرات السؤال فى صرامة ، على (قدرى) ، خبير التزييف والتزوير الأول فى الجهاز ، فخفض هذا الأخير وجهه فى أسى ، وهو يغمغم :

- لست أدرى يا سيادة المدير .. إنه ..

قاطعه المدير فى صرامة :

- إلى أين يا (قدرى) ؟!

عضّ (قدرى) شفتيه فى مرارة ، وهو يقول :

- سيّدى .. لقد أقسمت أن ..

صاح به المدير فى غضب :

- أقسمت بماذا ؟! القسم الوحيد ، الذى لا يصحّ أن تحنث به أبدًا ، هو قسمك بأن تطيع الأوامر ، وتفعل ما لصالح الوطن وحده ، دون النظر إلى أية أمور أخرى ، وأن تحفظ أسرار العمل والوطن ، وألا تبوح بها ، حتى ولو انتهت خدمتك هنا .

قال (قدرى) فى عصبية :

ـ أنا مدنى يا سيدى ، و ...

قاطعه المدير مرة أخرى فى صرامة :

ـ وماذا فى هذا ؟! إننا لسنا جهاز مخابرات عسكرى .. إنه جهاز مخابرات عامة ، وهذا يعنى أنه يضمّ أفضل العناصر ، من العسكريين ، ورجال الشرطة ، والمدنيين ، من ذوى الخبرات المتميّزة . وكلهم يخضعون لنفس القواعد ، ويلتزمون بنفس الالتزامات .

ثم مال نحوه ، مستطردًا فى غضب :

ـ ثم هل تعلم أن (أدهم) يواجه خطر العجز أو الموت هذه المرة ؟!

هل تدرك أن بذله لأى نشاط زائد ، قد يعنى مصرعه ، أو إصابته بما يقعده عن العمل للأبد ؟!

أومأ (قدرى) برأسه إيجابًا ، وقد ارتجفت شفتاه ، وهو يقول :

ـ هو أيضًا يعلم هذا ويدركه .

تراجع المدير ، صائحًا :

ـ هذا يعنى أنه مجنون .

هزّ (قدرى) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ لقد رفض أن يتخلّى عن واجبه .

هتف المدير فى غضب :

ـ واجبه ؟! أى واجب .. واجبه الأوّل هو أن يضع مصلحة الوطن فوق كل اعتبار ، وأن يلتزم بطاعة رؤسائه ، و ...

قاطعه (قدرى) هذه المرة ، على الرغم من أن هذا يخالف كل قواعد النظام واللياقة :

ـ (أدهم) يعلم كل هذا .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ ولقد اختار .

ردّد المدير فى عصبية :

ـ اختار ؟!

أومأ (قدرى) برأسه إيجابًا ، ودمعت عيناه بشدة ، وهو يجيب :

ـ نعم .. اختار واجبه ، وليس حياته .

ثم رفع عينيه إلى المدير ، مضيفًا فى حزم :

ـ واجبه الحقيقى .

انعقد حاجبا المدير فى توتر ، فقالت (منى) بلهجة حاسمة :

ـ لا داعى لكل هذا .. كلنا نعلم أين (أدهم).. نعلم أين ذهب بالضبط .. نحن لانحتاج إلى أجوبة (قدرى) فعليًا .

لوّح المدير بذراعه كلها ، قائلاً :

ـ هذا المجنون سيقتل نفسه ، وجعلنا موقعه يجعلنا مغلولى الأيدى ، ولا يمكننا حتى أن نرسل رجالنا فى (موسكو) لمعاونته .

قالت (منى) فى توتر :

ـ رجالنا فى (موسكو) يجيدون أعمال المراقبة ، والمتابعة ، وجمع المعلومات ، وتقييمها ، ولكن (أدهم) يحتاج إلى معاونة من نوع آخر ، لايمكننا توفيرها له بالسرعة والكفاءة اللازمين .

ثم انعقد حاجباه ، وهى تستدرك فى حزم :

ـ إلا إذا ..

سألها (أشرف) ، فى لهفة واهتمام :

ـ إلا إذا ماذا ؟!

التقطت سمّاعة الهاتف ، وأسرعت أصابعها تضغط أزراره ، وهى تجيب :

- إلا إذا ما أتت المعاونة من آخر مكان يمكن أن يتوقَّعه أحد .

التقى حاجبا المدير فى توتر ، وتبادل نظرة عصبية مع (أشرف) ، فى حين رفع (قدرى) عينيه إليها فى قلق وحيرة ، وكل مخاوفه تتساءل فى أعماقه : ترى ماذا تعنى (منى) بقولها هذا ؟

ماذا ؟!

* * *

أفلت جسد (أشرف) من الهليوكوبتر ، واختلَّ توازنه ، وسقط ، فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها صاروخ (إيفانوفيتش) نحو الهليوكوبتر مباشرة ، و ..

وفجأة ، وثب (علاء) من مكانه ..

وثب عبر باب الهليوكوبتر المفتوح ، تاركًا عصا القيادة ، على نحو مباغت ..

ومالت الهليوكوبتر فى عنف مفاجئ ، مع اختلال توازنها ، فتجاوزها الصاروخ ، فى اللحظة الأخيرة ، واتجه نحو قمم الأشجار ، فى نفس اللحظة التى أمسك فيها (علاء) قدمى (شريف) ، وهو يصرخ :

- أجذبى عصا القيادة نحوك يا (ريهام) .. انزعى .

حزام مقعده ، الذى ربطه حول قدمه ، جعله يتعلَّق بالهليوكوبتر ، وهو يمسك قدمى (شريف) فى قوة ، فى حين وثبت (ريهام) إلى عصا القيادة ، وقلبها يرتجف بين صدرها فى عنف ، وهى تصرخ :

- ولكننى لا أجيد قيادتها .. يا إلهى ! لم أفعل هذا قط من قبل .

مع آخر حروف كلماتها ، ارتطم الصاروخ بقمم الأشجار ، وانفجر فى عنف ، ومالت الهليوكوبتر أكثر وأكثر ، ولكنها أمسكت عصا القيادة ، وجذبتها

نحوها فى قوة ، فارتفعت الهليوكوبتر بحركة حادة ، وابتعدت مرة أخرى عن قمم الأشجار ، و (علاء) يهتف بـ (شريف) :

ـ تماسك يا صديقى ... تعلّق بجسدى ، وحاول أن تصعد إلى الهليوكوبتر بسرعة .

هتف (شريف) وأسنانه تصطك بعضها فى قوة :

ـ من السهل أن تطلب هذا .. إن فخذى تنزف مرة أخرى ، و تؤلمنى بشدة ، وأطرافى تكاد تتجمد بردًا .

كانت كتف (علاء) المصابة تكاد تتمزق ، وعلى الرغم من هذا فقد جذب جسد (شريف) بكل قوته ، هاتفًا :

ـ قلت : تعلّق بسرعة .. (ريهام) ستفعل بالهليوكوبتر وبنا ، ما لم ينجح فى فعله صاروخ (إيفانوفيتش) .

استنفز (شريف) كل قوته ، ومال بجذعه وذراعيه ورأسه ، وتعلق بجسد (علاء) ، وتسلّقه فى سرعة ، وهو يغمغم فى عصبية :

ـ عندما التحقت بالمخابرات العامة ، لم يدر بخلدى قط أن أواجه كل هذا .

وثب داخل الهليوكوبتر ، مع آخر حروف كلماته ، وراح يلهث فى شدة ، فى حين انثنى (علاء) فى رشاقة ، ليتعلّق بقائم الهليوكوبتر ، التى ترنّحت فى عنف ، مع عجز (ريهام) عن السيطرة عليها ، وهى تصرخ :

ـ رباه ! سنسقط .. حتمًا .

مال (شريف) إلى الأمام ، وضغط زرًا أخضر ، فى تابلوه القيادة ، قائلاً ، وهو يلهث فى عنف :

ـ استخدمى جهاز التوازن الآلى .

لم يكد يفعل ، حتى اعتدلت الهليوكوبتر ، واستعادت



استنفر (شريف) كل قوته ، ومال بجذعه وذراعيه ورأسه ، وتعلق بجسد (علاء) ، وتسلقه ..

توازنها ، وتوقفت فى الهواء ، ومراوحها تدور بأقصى سرعتها ، فهتفت (ريهام) فى دهشة :

- رباه ! هل تجيد قيادة الهليوكوبتر ؟!

ترك رأسه يسقط ، وهو يواصل لهاثه ، مجيبًا :

- مطلقًا .

دفع (علاء) جسده داخل الهليوكوبتر ، فى تلك اللحظة ، واستعاد عصا القيادة ، وهو يلهث بدوره ، من فرط ما بذل ، من جهد وانفعال ، فى حين تابع (شريف) وهو يغمض عينيه فى تهالك :

- لقد قرأت الكثير عنها فحسب .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان (إيفانوفيتش) يكاد يشتعل غضبًا وثورة ، و(ميرا) تقول :

- الهليوكوبتر أفلتت من الصاروخ مرة أخرى !
عجبًا ! كنت أتصورُ أنه من المستحيل أن يحدث هذا مرة واحدة ، ولكن هؤلاء المصريين فعلوه مرتين فى ليلة واحدة ، و ..

قاطعها بغضب هادر :

- كفى .

ثم تطلّع بعينين ملؤهما الغضب والمقت ، إلى القبعة الخضراء المضيئة ، على راداره الخاص ، وهو يقول :

- إنهم يتجهون إلى (موسكو) .. لا يمكنهم بلوغ هدف آخر ، فى ظل هذه الظروف المناخية .

قالت فى اهتمام ملهوف :

- هل أبلغ رجالنا فى (موسكو) بانتظارهم ؟!

أشار بيده قائلاً :

- ليس هذا فحسب .. أطلبى منهم محاصرة المدينة كلها ، والسيطرة على كل ذبابة تطير فى سمائها ، وكل نملة تسير على أرضها ، وكل بعوضة فى منازلها ومتاجرها وفنادقها ، وحتى حاناتها .. لا أريد أن يتنفس مخلوق واحد فيها دون علمى .. واتصلى برجلنا (بوريس) وأخبريه أن يتجه مع من تبقى من فرقتى الدراجات الآلية الجليدية والزحافات إلى هناك .. وصلينى بقائد شرطة (موسكو) وقيادة الدفاع الجوى فى المنطقة ، وقائد وحدات الأمن العسكرى .. كلهم يتقاضون منا رواتب ضخمة ، وعليهم أن يقدموا خدماتهم بالمقابل .

وانعقد حاجباه الكثين فى عنف شرس ، وهو يضيف :

- أخبريهم جميعًا أنها حرب .. حرب تشنها (المافيا) الروسية ، ضد ثلاثة من المصريين ، الذين جرءوا على الإساءة إليها ، وأن أقل ماتطالبهم به ، هو سحقهم سحقًا .

وقبض أصابعه ، وهو يلوّح بها أمام وجهه ، مستطردًا فى وحشية :

- وبلا رحمة .

والتمعت عيناه بنيران غاضب هادر لا محدود ..

بل بحمم بركان ..

بركان ثائر ..

بمنتهى العنف ..

* * *

استرخى أفراد وحدة الدفاع الجوى الروسى ، على مقاعدهم المجاورة للمدفأة الكبيرة ، وراحوا يحتسون (الفودكا) ، التى هربوها إلى المكان ، متجاوزين الأوامر الصارمة فى هذا الشأن ، ويدخنون تلك السجائر الصغيرة ، ذات الروائح النفاذة ، وأحدهم يقول فى تراخ :

- يا لها من ليلة ! الجليد ينهمر طوال الوقت ، وإدارة الأرصاد تؤكد أن هذا سيستمر ، خلال الساعات العشر القادمة على الأقل .

هزّ زميله كتفيه ، ولوّح بكأسه ، قائلاً :

- هذا أفضل يا رجل ، عندما تسوء الأحوال الجوية ، نتمتع نحن بالراحة والهدوء ، والدفء .

قال أحد زملائهما فى خبث :

- ولكن فى الأيام التى نقضيها فى منازلنا ، نتمتع بدفء أكثر .

قالها ، فانفجر الكل ضاحكين ، ولوّح أحدهم بزجاجة الفودكا ، هاتفًا :

- دعابتك هذه تستحق كأسًا أخرى يا رجل .. لحضر الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، انطلق أزيز جهاز الاتصال

فجأة ، فالتقط أحدهم سماعته فى سرعة ، وتنحنح لحظة ، ليزيل من حلقه أثر الفودكا والسجائر ، قبل أن يقول :

ـ وحدة الدفاع الجوى المركزية .

أتاه صوت قائده ، وهو يقول فى صرامة ، عبر جهاز استماع عام :

ـ هناك هليوكوبتر تقترب من العاصمة .. اعملوا على إسقاطها فورًا .

اتسعت عيون الآخرين فى دهشة ، وغمغم أحدهم :

ـ هليوكوبتر ؟! فى مثل هذا الطقس ؟! أهو نوع من التدريب ؟!

أما متلقى الرسالة ، فقد التفت لحظة إلى الرادار ، وشاشة المعلومات ، قبل أن يقول فى توتر :

ـ هناك هليوكوبتر بالفعل ، تطير على ارتفاع منخفض ، ولكن ...

هتف القائد فى صرامة :

ـ ولكن ماذا ؟!

أجابه الرجل ، فى تردد :

ـ إنها الهليوكوبتر الخاصة بالسيد (إيفانوفيتش) يا سيدى .

أجابه قائده ، فى صرامة أكثر :

ـ أسقطوها .

امتقع وجه الرجل ، وهو يغمغم :

ـ سيدى .. أخشى أن ..

صرخ قائده ، بكل الغضب والصرامة :

ـ اطع الأوامر أيها الجندى .

اعتدل الرجل بحركة حادة ، وهتف :

- كما تأمر يا سيدى .

وأنهى الاتصال ، وهو يلتفت إلى زملائه ، قائلاً فى اضطراب واضح :

- لقد تلقينا أمرًا بـ ..

قاطعه زملاؤه ، وكل منهم يحتلّ موقعه :

- لقد سمعنا .

كان الأمر يفوق قدرتهم على الفهم ، خاصة وأنهم يدركون ، ككل مواطن فى (روسيا) ، مدى سطوة وقوة (إيفانوفيتش) .

ولكنهم تلقوا أمرًا مباشرًا ..

ولا بديل عن تنفيذه ..

لذا ، فقد بدءوا عملهم على الفور ..

وعلى شاشة الرادار ، ظهرت الهليوكوبتر ، التى يقودها (علاء) ، وهى تطير على ارتفاع منخفض للغاية ، عند مشارف المدينة ، فغمغم أحدهم ، وهو يضغط أزرار أجهزة توجيه الصواريخ المضادة للطائرات :

- الهليوكوبتر تحلّق هذه المرة على ارتفاع منخفض للغاية ، حتى إن الرادارات القديمة لايمكنها كشفها .. إنها تطير على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب من الأرض ! من ذا الذى يحلق على ارتفاع كهذا .. إنه معرّض للاصطدام بأعمدة الإنارة ، والجسور ، وعلامات الطرق .

زمجر أكبرهم رتبة ، وهو يقول فى خشونة :

- لسنا هنا لدراسة الموقف .. هل أنتم على استعداد ؟!

لم يكد ينطق عبارته ، حتى ارتفعت الهليوكوبتر فجأة ، على نحو عمودى محض ، فصاح الرجل فى حدة :

ـ أطلقوا النار .

ضغط زميله زر الإطلاق ، فانطلقت الصواريخ المضادة للطائرات ، من بطارية المدفعية ..

نحو الهدف مباشرة ..

وبسرعة ، واصلت الهليوكوبتر ارتفاعها ، وهى تميل نحو اليسار ، وتندفع بزاوية حرجة ..

وانطلق صاروخان نحوها مباشرة ، من الأسفل واليسار ، و ...

ودوى انفجاران عنيفان ..

ونسفا الهليوكوبتر نسفاً ، لتتناثر شظاياها على مساحة واسعة للغاية ، وانبعثت منها كتلة من اللهب ، أيقظت نصف سكان (موسكو) ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ..

ثم انكمش اللهب فى سرعة ، وتحوّل إلى سحابة سوداء مخيفة ، تلاشت مع الجليد المنهمر ، وعاد الهدوء يخيِّم على المنطقة كلها ..

هدوء له رائحة الدخان ..

والنيران ..

والموت ..

* * *

انعقد حاجبا مدير شرطة (موسكو) فى صرامة ، وهو يقف تحت الجليد المنهمر ، يراقب رجاله ، الذين غادروا سياراتهم ، وانطلقوا بأسلحتهم يحاصرون المنطقة الواسعة ، التى تناثرت فيها شظايا الهليوكوبتر ، واقترب منه (بوريس) ، فى خطوات عصبية واضحة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أريد فحص كل شبر من المنطقة ، و ...

قاطعه مدير الشرطة فى حدة :

ـ سيِّد (بوريس) .. ربما كنت رجل حرب سابق ، وأحد أفضل رجال السيد (إيفانوفيتش) ، ولكننى مدير الشرطة هنا ، ولا أحد يلقى أوامره علىَّ ، أمام الـ ...

قاطعه (بوريس) هذه المرة ، بمنتهى الصرامة :

- وماذا عن الراتب الضخم الذى تتقاضاه منا ، والذى ...

استوقفه مدير الشرطة بإشارة صارمة من يده ، وهو يخفض صوته ، قائلاً :

- اخفض صوتك ، أو أقسم أن آمر رجالى بنسف رأسك بلا رحمة .

أشار (بوريس) بيده ، وهو يقول صارمًا :

- لا تنس أن رجالى برفقتى أيضًا ، وأنهم أفضل من رجالك حتمًا .

قال مدير الشرطة فى عصبية ، وهو يخفض صوته أكثر :

- ماذا تريدون منى بالضبط يا سيد (بوريس) ؟! لست الوحيد الذى يتقاضى منكم راتبًا شهريًا .. كل

المسئولين هنا ، أو معظمهم على الأقل يفعلون ، وأنا أفعل كل ما تأمرون به ، فلماذا السعى لتدمير سمعتى على هذا النحو ؟!

أشعل (بوريس) واحدة من سجائره ، ذات الرائحة النفاذة ، وهو يقول فى حزم صارم :

- رجالنا سيشاركون فى عملية البحث يا رجل .. بأية حجة .. وبأى تفسير .. أخبر رجالك أننا مجموعة من خبراء نواتج التفجير ، أو لا تخبرهم شيئًا على الإطلاق .. امنحنا حق التواجد بينهم فحسب .. على الأقل نحن نعلم ما الذى نبحث عنه !

سأله مدير الشرطة فى عصبية :

- وما الذى تبحثون عنه بالضبط ؟!

نفث (بوريس) دخان سيجارته ، وهو يقول فى صرامة :

- أشلاء .

انعقد حاجبا مدير الشرطة فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ آه .. فهمت .

ولأن مدير الشرطة يتقاضى بالفعل راتبًا شهريًا ضخمًا ، من منظمة (المافيا) الروسية ..

ولأنه يدرك جيدًا ما يمكن أن يفعلوه ، مع من يرفض التعاون معهم ، فلم يكن أمامه بديل عن الخضوع ..

وهكذا تضاعف فريق البحث ..

وخاصة بعد أن انضمّ إليهم فريق الأمن العسكرى ..

وعلى مساحة كبيرة ، فى دائرة نصف قطرها خمسة كيلومترات ، راح أكثر من مائتى رجل مسلح ، من الشرطة والجيش ، ورجال (المافيا) الروسية ينبشون المنطقة ، ويقلبونها شبرًا شبرًا ، بحثًا عن أحياء أو أشلاء لجثث من لقوا مصرعهم ، فى انفجار الهليوكوبتر ، بمنتهى الدقة ..

والاهتمام ..

والشراسة ..

وطوال خمس ساعات كاملة ، لم يتوقّف الرجال عن البحث لحظة واحدة ..

وفى تمام الثالثة صباحًا ، توقّفت عمليات البحث الرسمية ، على كل المحاور ..

إلا ذلك المحور الخاص برجال (المافيا) الروسية ..

فبمنتهى الغضب والشراسة ، قال (بوريس) لرجاله :

ـ لا توجد ، فى المنطقة كلها ، سوى شظايا حطام الهليوكوبتر !! لا جثث ، أو أشلاء محترقة ، أو حتى آثار دماء ؟! لقد خدعنا هؤلاء المصريون مرة أخرى .

سأله أحد رجاله فى حيرة :

ـ ولكن كيف ؟! الصواريخ أصابتها على ارتفاع أكثر من سبعمائة متر من سطح الأرض !

انعقد حاجبا (بوريس) فى شدة ، وهو يقول :

ـ لقد فعلوها بوسيلة ما .

ثم تلفت حوله فى عصبية ، مستطردًا :

ـ وأنا واثق من أنهم يختفون هنا ، فى مكان ما .

والتقط نفسًا عميقًا ، من الهواء المثلّج ، قبل أن يكمل فى صرامة آمرة :

ـ ما دامت قوات الشرطة والأمن العسكرى قد انسحبت ، فسنعيد نحن تمشيط المنطقة بوسائلنا الخاصة .. سنقلب الجليد ، ونحرق الأشجار لو اقتضى الأمر .. المهم أن نعثر عليهم .. وبأى ثمن .

وبناء على أوامره ، واصل رجاله التنقيب والبحث لساعتين أخريين ، بمنتهى الاهتمام والدقة والوحشية ..

وفى تمام العاشرة ، لم يعد هناك مفرّ من الاعتراف بالحقيقة ، مهما كانت قسوتها ..

لقد اختفى فريق (أدهم صبرى) ، وسط ثلوج (موسكو) ، دون أن يترك خلفه أثرًا ..

أدنىَ أثر .

* * *



٤ـ موسكو ..

« مستحيل ! »

هتف (إيفانوفيتش) بالكلمة ، بكل غضب وثورة الدنيا ، وهو يضرب قبضته فى الجدار ، مستطردًا بوجه احتقن ، حتى شارف الانفجار :

ـ هؤلاء المصريون سينسفون سمعتنا وهيبتنا وكرامتنا نسفًا .. لا يمكن أن ينجحوا فى الفرار منا ثلاث مرات ، فى ليلة واحدة .. مستحيل .. مستحيل تمامًا .

قالت (ميرا) فى حذر :

ـ ليس لدينا دليل بعد ، على أنهم قد نجوا من الحادث ، أو ...

قاطعها فى صرامة ثائرة :

ـ هل أصبحت حمقاء أم أنك تحاولين تهدئتى فحسب ؟!

امتقع وجهها البارد ، وهى تتمتم :

ـ كلاّ أيها الزعيم .. إننى ..

قاطعها ، قبل أن تتم عبارتها ، وهو يتابع فى ثورة ، وقد تحولت عيناه إلى كتلتين من الدم :

ـ من المؤسف أن عجزت عن قراءة ما أبلغهم به الرادار يا (ميرا) .. هذا يعنى أن خيالك محدود للغاية ، فبالنسبة لى ، أستطيع أن أرسم فى ذهنى صورة كاملة لما حدث .

ولوّح بذراعيه ، مستطردًا فى حدة :

ـ لقد انخفضوا بالهليوكوبتر ، إلى ارتفاع ثلاثة أمتار ، ووثب اثنان منهم إلى الأرض ، أما الثالث ، فقد لفّ حزام المقعد حول عصا القيادة ، ثم جذبها ،

قبل أن يثب بدوره .. وارتفعت الهليوكوبتر .. وارتفعت .. وارتفعت .. ولأن رجال الدفاع الجوى عندنا حمقى ، لا يعرفون سوى طاعة الأوامر كالبغال ، فقد طاردوا الهليوكوبتر الخالية ، وأطلقوا نحوها صواريخهم ، فى حين كان المصريون الثلاثة يتسللون إلى (موسكو) ، ويختفون وسط شوارعها الباردة الخالية التى يغمرها الجليد .

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى حذر :

ـ ولكن هذا ليس بالأمر اليسير أيها الزعيم .. ليس من السهل أن يجول الغرباء فى (موسكو) ، مع سقوط الجليد . فالشوارع شبه الخالية تتحول ضدهم فى هذه الحالة ؛ فكل رجل شرطة سيستوقفهم ،ويلقى عليهم بعض الأسئلة على الأقل ، وستواجههم عندئذ مشكلة اللغة .

هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ المصريون ليسوا أغبياء .. إنهم لن يرسلوا فريقًا كهذا إلى (موسكو) ، دون أن يجيد أحدهم على الأقل اللغة الروسية .

قالت فى حذر :

ـ اللغة وحدها لا تحلّ مشكلة الهوية .

اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يستدير إليها بحدة مباغتة كوحش غاضب ، هاتفًا :

ـ (ميرا) .. هل استعدنا منهم بطاقات الهوية ، التى تحمل شعارى الذهبى الخاص ؟!

امتقع وجهها ، وهى تجيب فى شحوب :

ـ لست أعتقد هذا .

خُيِّل إليها أن وجهه كله سينفجر ، كقنبلة من الدم ، وهو يصرخ :

ـ آآآآآآآآآآه .

ثم لطم جهاز الكمبيوتر المجاور له بظهر يده ، فألقاه أرضًا فى عنف ، وهو يواصل صرخته :

- مستحيل ! مستحيل ! مستحيل !

وكشّر عن أنيابه كذئب مفترس ، مضيفًا :

- لقد فعلوها .. استخدموا هويتنا ، التى يستحيل تزويرها ، للفرار منا .. استخدموا سلاحنا لطعننا .. مستحيل ! مستحيل !

لم تجرؤ (ميرا) على نطق حرف واحد ، مع تلك الثورة الهادرة ، التى لم تره قط عليها ، فى عمرها كله ، وخُيِّل إليها أن جسده كله ينتفض فى عنف ، وأن عينيه ستقفزان من محجريهما ، وهو يهتف :

- أخبرى (بوريس) أنهم هناك .. فى (موسكو) .. أخبريه أن ينبش كل شبر فى (موسكو) بحثًا عنهم ، وأن ...

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى تفكير متوتر عميق ، قبل أن يلتفت إليها مرة أخرى فى صرامة ، قائلاً :

- أريد نسخًا من الصور ، التى استخدمناها لاستخراج هوياتهم الخاصة ، وصلينى بمدير شرطة (موسكو) ، ورئيس شبكة البث التليفزيونى الرئيسية .

وعاد حاجباه ينعقدان على نحو شيطانى ، وهو يضيف فى وحشية :

- ونرى إلى أين ستقودهم براعتهم هذه المرة .

قالها ، وعيناه تشتعلان مرة أخرى بلهيب مخيف .. رهيب .. ووحشى ..

* * *

انتفض جسد (شريف) ، وهو يستيقظ فجأة ، على ذلك الفراش الصغير الوثير ، ووجد نفسه يعتدل جالسًا فى حركة حادة ، وهو يهتف :

- أين ...

بتر عبارته بغتة ، وهو يحدق فى وجهى (علاء) و(ريهام) ، والأولى تنهض من مقعدها ، وتتجه نحوه ، قائلة :

- حمدًا لله على سلامتك .

سألها فى دهشة ، وهو يتلفت حوله :

- أين نحن ؟!

ابتسم (علاء) ، وهو يقول :

- لن يمكنك أن تصدق .. إننا فى جناح سرى خاص ، فى مستشفى (موسكو) المركزى ، ولقد أجريت لك جراحة محدودة أمس ، بعد أن فقدت

وعيك ، إثر قفزنا من الهليوكوبتر ، واستخرج الأطباء تلك الرصاصة من فخذك ، ويؤكدون أنك قادر على السير جيدًا ، ولكنك تحتاج إلى يوم واحد من الراحة والاستقرار .

حدق (شريف) فيهما بدهشة كبيرة ، قبل أن يقول فى عصبية :

- تتحدث كما لو أنك قد أوضحت كل الغموض ، ومازلت لا أفهم ما يحدث .

- جلست (ريهام) على طرف فراشه ، وهى تقول :

- أنا سأشرح لك كل شىء .

وابتسمت ، متابعة :

- لقد فقدت وعيك ، عند القفز من الهليوكوبتر ، فحملك (علاء) على كتفه ، وسار بك حتى (موسكو) ، وعندما استوقفنا أحد رجال الشرطة ،

تصوّرت أنه قد انتهى أمرنا ، ولكننى فوجئت بـ (علاء) يتحدث إليه بالروسية ، وكنت أجهل أنه يجيدها ، وأخبره أننا رجال (إيفانوفيتش) ، وأننا مصابون ، ونحتاج إلى إسعاف عاجل ، يتم فى سرية بالغة ، ثم أبرز بطاقات الهوية الخاصة جدًا ، والتى تحمل شعار (إيفانوفيتش) الذهبى ..

ثم أطلقت ضحكة قصيرة ، قبل أن تواصل :

ـ وفجأة تغيّر كل شىء ، وتعامل معنا الكل كما لو كنا من الأمراء الذهبيين ، فنقلتنا سيارة شرطة إلى المدخل الخلفى للمستشفى المركزى ، حيث استقبلنا فريق خاص من أطباء الطوارئ ، وتم إجراء الجراحة المحدودة لك ، وأخرى لاستخراج الرصاصات من كتفى وذراعى ، وتم تضميد جراح كتف (علاء) وعنقى ، ثم قام الكل بنقلنا إلى هذا الجناح السرى الخاص ، المخصص لرجال (المافيا) الروسية وحدها .

وعادت تضحك فى سخرية ، مستطردة :

ـ أطرف ما فى الأمر هو أننا استخدمنا بطاقات (إيفانوفيتش) ، للفرار من (إيفانوفيتش) .. هل تدرك حجم المهزلة ؟!

سألها (شريف) ، وهو يتحسّس فخذه فى توتر :

ـ هل تتصوّران أنهم لن يبلغوه بالأمر ؟!

هزّ (علاء) كتفيه ، وقال :

ـ لو أنهم يفعلون فى المعتاد ، لما بقينا على قيد الحياة ، حتى هذه اللحظة .

ثم مال نحوه ، قائلاً بابتسامة كبيرة :

ـ إنها الثانية عشرة ظهرًا يا صديقى .

هتف (شريف) بانبهار :

ـ حقًا ؟!

ثم هبط من فراشه ، مضيفًا فى حزم :

- عظيم .. لقد حصلنا إذن على الرعاية الطبية المناسبة ، مع قدر كبير من النوم والراحة .. أفضل ما نفعله إذن ، هو أن نغادر هذا المكان ، بأقصى سرعة ممكنة .

قالت (ريهام) فى دهشة :

- هكذا ؟! فى وضح النهار ؟!

وربت (علاء) على كتفه ، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

- اطمئن يا صديقى .. الكل هنا يتصوَّر أننا رجال (إيفانوفيتش) ، وأننى أنقل إليهم أوامره ، ولن يجرؤ مخلوق واحد حتى على إخبار زوجته بأمرنا .. وقليلون جدًا هم من يعلمون بوجودنا هنا ، حتى إن مدير المستشفى نفسه يجهل أمرنا .

انعقد حاجبا (شريف) فى شدة ، وهو يقول :

- (إيفانوفيتش) ثعلب ماكر ، وسيجد وسيلة حتمًا .

لم يدرك ، وهو ينطق عبارته هذه ، أن (إيفانوفيتش) قد وجد الوسيلة بالفعل .. وأنها وسيلة قوية وفعّالة للغاية ..

فعبر كل شاشة تلفاز ، فى العاصمة الروسية ، شاهد كل مواطنى (موسكو) وجوههم ، باعتبارهم من أعداء الدولة ، الذين يرصد السيِّد (إيفانوفيتش) ، رجل الأعمال الشهير ، مليون روبل دفعة واحدة ثمنًا لرءوسهم ..

والأكثر خطورة ، أن كل أطباء وطاقم تمريض المستشفى قد شاهدوا هذا النداء ، وبالذات ذلك الفريق الخاص ، الذى أشرف على إسعافهم .. بأكمله ..

* * *

بدا وجه رجل المخابرات الإسرائيلى (يهو) صارمًا جافًا ، وهو يستقبل زميله (دان جرينوفيتش) ، فى مطار (تل أبيب) ، وهذا الأخير يتجه إليه فى إرهاق واضح ، ويصافحه ، قائلاً :

- كرم منك أن تنتظرنى فى المطار يا صديقى .. إننى لم أتوقع هذا ، عندما أرسلت برقيتى من (وارسو) .. كل ما تمنيته هو أن أجد سيارة فى انتظارى .

غمغم (يهو) ، وهو يقوده إلى سيارته الكبيرة :

- إننى لم أبلغ الإدارة بعد .

سأله (دان) فى دهشة ،وهو يلتف إلى السيارة :

- ولماذا ؟!

احتلَّ (يهو) مقعد القيادة ، وأدار المحرك ، قائلاً :

- أردت أن أعرف ما لديك أولاً .

زفر (دان) ، قائلاً فى عصبية :

- إنه أمر بالغ الخطورة يا رجل ، حتى إننى قطعت رحلة مرهقة للغاية ، حتى أصل إلى هنا ، وأقوم بتحذيركم مباشرة .

سأله (يهو) ، وهو ينطلق فى طريق جانبى :

- ولماذا لم ترسل برقية شفرية ؟!

غمغم (دان) ، وهو يحاول الاسترخاء فى مقعده ، ويسبل جفنيه ، فى إرهاق شديد :

- الأمر أخطر من أن أفعل يا رجل .

قال (يهو) فى حذر :

- إلى هذا الحد ؟!

لوّح (دان) بيده ، وهو يتثاءب فى قوة ، قائلاً :

- أخطر مما تتصور .

صمت (يهو) لحظة ، وهو يختلس النظر إليه ، قبل أن يسأله :

- هل يمكنك أن تخبرنى خطوطه العريضة على الأقل ؟!

كان (دان) يقاوم النوم فى صعوبة ، وهو يجيب :

- إنها محاولة اغتيال .

ردد (يهو) ، فى حذر أكثر :

- اغتيال ؟!

تثاءب (دان) مرة أخرى ، وقال :

- نعم .. منظمة للجاسوسية ، تسعى لاغتيال وزير الدفاع المصرى ، و ...

اندفع رأسه بغتة إلى الأمام ، عندما ضغط (يهو) فرامل السيارة دون إنذار ، وهتف فى حنق :

- ماذا تفعل ؟!

فتح عينيه ، وأدهشه أن يجد نفسه فى منطقة مقفرة تمامًا ، فتابع :

- أين نحن بالضبط ؟!

قال (يهو) فى شىء من العصبية :

- معذرة يا صديقى .

ثم انتزع مسدسه من حزامه فجأة ، وألصقه بصدغ (دان) ، مضيفًا :

- ولكنك تعرف أكثر مما ينبغى .

اتسعت عينا (دان) عن آخرهما ، وصرخ :

- لا .. إننى ..

قبل أن يتمّ صرخته ، انطلقت رصاصة (يهو) ..

وتناثرت الدماء ، وشظايا الجمجمة ، وأجزاء من



ثم انتزع مسدسه من حزامه فجأة ، وألصقه بصدغ (دان) ..

المخ ، فى السيارة كلها ، وتراجع (بهو) بحركة حادة ، وانعقد حاجباه فى اشمئزاز ، وهو يلتقط هاتفه الخلوى الخاص ، ويطلب رقمًا خاصًّا ، ثم يقول :

ـ لقد كنت على حق يا مستر (   ) ... (دان) كان يعمل لحساب تلك الروسى بالفعل .. من حسن الحظ أنه أرسل برقيته إلىَّ ، وليس إلى الإدارة .

وصمت بضع لحظات ، ليستمع إلى الأوامر فى اهتمام ، قبل أن يومئ برأسه ، ويقول فى احترام شديد :

ـ أوامرك يا مستر (X) .

وأنهى الاتصال ، ثم أعاد الهاتف إلى جيبه ، وغادر السيارة ، وراح يغرقها بعبوة كبيرة من البنزين ، قبل أن يشعل فيها النار ، ثم يبتعد عنها فى هدوء ، متجهًا نحو سيارة أخرى ، تنتظره خلف كومة من الأشجار ..

وعندما انطلق بالسيارة الجديدة مبتعدًا ، كانت السيارة التى تحوى جثة (دان) تنفجر من خلفه ، مع كل خطة (إيفانوفيتش) ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

لوّح مدير شرطة (موسكو) بكفه ، فى عصبية بالغة ، وهو يقول بكل توتر الدنيا :

ـ سيد (بوريس) .. أنت لاتدرك خطورة ماتطلبه .. لا يمكنك أن تشعل حربًا ، فى قلب (موسكو) ، ثم تطلب منى عدم التدخل برجالى وقواتى ، إلا بعد أن ينتهى الأمر .. سيجعلنى هذا أضحوكة (روسيا) كلها .

أجابه (بوريس) فى صرامة ،وهو يشعل سيجارته :

ـ أضحوكة بمليون روبل ... إنها تبدو لى صفقة رابحة .

قال مدير الشرطة فى حدة :

ـ الأمور ليست بهذه البساطة يا سيد (بوريس) .. كل مسئول فى (روسيا) كلها يعلم من هو (إيفانوفيتش) ، ولقد طلب الوزير إحاطته عن هؤلاء الثلاثة ، الذين تُعلن عنهم القناة الرئيسية ، وصلة (إيفانوفيتش) بالأمر ، وطالب بإيقاف الإعلان فورًا ، حتى يتمّ عرض الأمر عليه .

هزّ (بوريس) كتفيه بلا مبالاة ، وهو ينفث دخان سيجارته ، قائلاً :

ـ لم نعد بحاجة للإعلان .. لقد حصلنا على مانبتغيه منه .. لقد انتهى أمره .

قال مدير الشرطة فى عصبية :

ـ ليس بالنسبة لنا .. ستكون هناك تحقيقات ، واستجوابات ، و ...

قاطعه (بوريس) ، فى صرامة غاضبة :

- ولو رفضت طاعة ما آمرك به ، ستكون هناك فضائح ، ووثائق إدانة ، وربما رصاصة فى المخ أيضًا .

اتسعت عينا مدير الشرطة ، وامتقع وجهه بشدة ، وهو يحدق فى وجه (بوريس) فى ارتياع شديد ، ثم لم يلبث أن خفض عينيه ، متمتمًا فى مرارة :

- كم تحتاج من الوقت .

تراجع (بوريس) ، وتألقت عيناه فى ظفر ، وهو يجيب ، نافثًا دخان سيجارته فى وجه مدير الشرطة :

- عشر دقائق على الأكثر .

زفر الرجل فى عصبية شديدة ، وأشاح بوجهه ، قائلاً :

- فليكن .. عشر دقائق على أقصى تقدير .. لن أسمح بثانية واحدة إضافية .

قالها ، ثم ابتعد فى حركات عصبية ، وهو يشير لرجاله بالانصراف ، فابتسم (بوريس) فى ظفر ، قائلاً :

- هذا يكفى .

وقف ينفث دخان سيجارته ، ذات الرائحة النفاذة ، حتى خلت المنطقة تمامًا ، فأشار إلى رجاله فى صرامة ، قائلاً :

- سننطلق إلى المستشفى المركزى فورًا .. فريق راكبى الدراجات سيحاصر مبنى المستشفى تمامًا .. لن نسمح لأى مخلوق بمغادرتها ، أيًا كانت هويته .. أما فريق الزحافات ، فسيتخلى عن زحافاته هنا ؛ لأنه لا فائدة منها داخل المدينة ، وسيقوم معى بالسيطرة على كل ممرات المستشفى الداخلية ،

حتى نضمن أن هؤلاء الثلاثة لن يمكنهم الإفلات منا هذه المرة ، حتى لو تحولوا إلى ذباب .

قالها ، وانطلق برجاله نحو الهدف ، الذى أبلغهم به أحد أفراد الفريق الطبى المحدود ..

نحو مستشفى (موسكو) المركزى ..

وراح الفخ يطبق على أبطالنا الثلاثة ..

بمنتهى القوة ..

والإحكام ..

* * *

« ماذا تفعلين بالله عليك ؟! »

هتف (شريف) بالسؤال فى عصبية ، فضحكت (ريهام) ، قائلة :

ـ لم أستطع منع أصابعى من العمل .

هز رأسه فى حدة ، قائلاً :

ـ يومًا ما ستنسفين طفلك ، ببيرونة ملغومة .

ضحكت هاتفة :

ـ ليس إلى هذا الحد .

ابتسم (علاء) ، وهو يتجه إلى النافذة ، قائلاً :

ـ أخشى ألا تستطيعى المقاومة حينذاك ، أو ...

بتر عبارته بغتة ، وتراجع بحركة حادة ، وهو يهتف :

ـ رباه !

قفز (شريف) من فراشه ، وهو يقول فى هلع :

ـ ماذا هناك .

واندفعت (ريهام) نحو النافذة ، قائلة :

ـ هل رأيت شيئًا ، أم ...

جذبها من ذراعها فى عنف ، ليمنعها من بلوغ النافذة ، وهو يقول :

- حذار .. إنهم يحاصرون المكان .

امتقع وجه (شريف) ، وهو يهتف فى ذعر :

- يحاصرون ماذا ؟!

انعقد حاجبا (ريهام) ، وهى تقول فى عصبية :

- ولكن كيف ...

قاطعها (شريف) ، هاتفًا :

- كنت أعلم أن (إيفانوفيتش) سيجد وسيلة ما .

تحرك (علاء) فى حزم ، وهو يقول :

- أظن أن أول ما ينبغى أن نفعله الآن ، هو الحصول على سلاح .. أى سلاح .

قالها ، وفتح الباب بحركة عنيفة ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

ففى وجهه ، ارتفعت فوهات أربعة مسدسات ، لأربعة من رجال أمن المستشفى ، وأحدهم يقول فى صرامة :

- لن يغادر أحدكم هذا الجناح الخاص .. إنها أوامر ...

قبل أن يتمّ الرجل عبارته ، كانت قبضة (علاء) تحطّم فكه وأسنانه ، بلكمة كالقنبلة ، وهو يمسك معصمه ، ليبعد فوهة مسدسه عن رأسه ، وقدمه تندفع ، لتغوص فى معدة آخر ، وانطلقت رصاصة من مسدس حارس ثالث ، ولكن بعد أن وثبت (ريهام) نحوه ، وكسرت أنفه بركلة مباشرة ، فطاشت رصاصته فى الهواء ، وحاول الرابع أن يتراجع ، ولكن (علاء) وثب نحوه ، صائحًا :

- إلى أين يا صاح ؟!

لوّح الرجل بمسدسه ، صارخا :

- لا .. أنا مجرّد رجل أمن عادى ، و ...

أخرسته لكمة كالمطرقة ، فى فكه مباشرة ، فسقط مع زملائه أرضا ..

وبسرعة ، انتزع (علاء) المسدسات الأربعة ، وألقى اثنين منها لزميله وزميلته ، وهو يهتف :

- هيا بنا .

انطلق ثلاثتهم يعدون ، خارج تلك الجناح الخاص ، و (شريف) يهتف ، وهو يضغط شفته بأسنانه ، من فرط الألم :

- والأطباء يطالبوننى ببعض الراحة .

هتف (علاء) :

- فيما بعد يا صديقى .. فيما بعد .

أصيب الأطباء والممرضات والعمال بالهلع ، مع رؤيتهم يعدون فى الممرات ، حاملين مسدساتهم ، وتعالى الصراخ وانتشر الذعر ، و ...

وفجأة ، ظهر رجال (المافيا) الروسية ، فى نهاية الممر ..

وفور ظهورهم ، انهالت رصاصاتهم كالمطر ..

وبرد فعل مثالى ، وثب (علاء) و (ريهام) و (شريف) ، خلف جدار نصفى ، يفصل بين قسمين ، وصاح الأخير فى عصبية :

- المدافع الآلية المتطوّرة .. إنهم يقاتلوننا بها ، ونحن لا نمتلك سوى المسدسات .

برز (علاء) من مكانه ، وهو يهتف فى صرامة :

- إنها تفيد أحيانًا .

انطلقت ثلاث رصاصات من مسدسه ، لتنسف رأسى اثنين من رجال (المافيا) الروسية ، وصرخ (بوريس) فى رجاله :

- قاذفات القنابل .. استخدموا قاذفات القنابل .

ولكن (ريهام) برزت بدورها ، فى تلك اللحظة ، وألقت ثلاث زجاجات بسيطة ، نحو رجال (المافيا) الروسية ، وهى تصيح :

- الآن سترى فائدة البيرونات الملغومة يا صديقى .

ودوت الانفجارات ، قبل حتى أن يطلق رجال (بوريس) قنابلهم ، واشتعلت النيران فى أجسادهم ، وأحاطت بهم أدخنة كثيفة ، فصاحت (ريهام) ، وهى تعدو فى الاتجاه المعاكس :

- أسرعا .. ابحثا معى عن حجرة النظافة .

انطلقا خلفها بالفعل ، وصرخات رجال (بوريس) المشتعلين تدوى فى المكان ، وهتف (شريف) بتوتر بالغ :

- ولماذا ؟! هل سنقاتلهم بالدلاء وأدوات التنظيف ؟!

صاحت به :

- بل سنجد منفذ الخروج أيها المتحذلق .

ظهرت موجة جديدة من رجال (بوريس) فى تلك اللحظة ، وسط موجة هائلة من الرعب والهلع ، سادت المكان كله ، و (بوريس) يصرخ :

- القنابل .. أطلقوا القنابل .. انسفوهم نسفا .

وفى نفس اللحظة ، التى اقتحم فيها الثلاثة حجرة التنظيف ، انطلقت خلفهم قذائف المدافع الخاصة ..

وقفزت (ريهام) ، عبر أسطوانة نقل الملابس المستعملة ، وراحت تنزلق داخلها فى سرعة ، ولحق بها (شريف) ، ومن خلفه دوى انفجار عنيف ..

وشعر بـ (علاء) ينزلق خلفه ، ويرتطم به ، وهو يرتطم بزميلته (ريهام) ، وثلاثتهم ينزلقون بسرعة مخيفة ، عبر أسطوانة نقل الملابس ..

ثم فجأة ، سقطوا من الطرف الآخر للأسطوانة ، داخل وعاء كبير ، يمتلئ بالملابس المرسلة للتنظيف ، من كل أدوار المستشفى ..

وبسرعة ، وثبت (ريهام) خارج الوعاء ، وانطلقت تعدو نحو باب المضلة الخلفى ، هاتفة :

- فلنتعشم أن يكونوا قد أهملوا هذا الجانب .

لحق بها (علاء) و(شريف) ، والأول يهتف :

- لقد تركنا المعاطف المضادة للرصاص ، والقفازات خلفنا ، والجليد ما زال ينهمر .

صاح به (شريف) ، وهو يلهث فى شدة :

- لن يزعجنا هذا ، إلا إذا بقينا على قيد الحياة .

اقتحمت (ريهام) الباب الخلفى ، فى هذه اللحظة ، وهى تهتف :

- المهم أن نفعل ما بوسعنا ، و ...

قبل أن تتمّ عبارتها ، انهال عليها وابل من الرصاصات ، فتراجعت صائحة :

- رباه ! إنهم هنا .

ومن موقعه ، استطاع (علاء) أن يحصى ثلاثة من راكبى الدراجات الآلية ، يتجهون نحوهم مباشرة ، بمدافعهم القوية ، وهم يستعدون لاستخدام قاذفات القنابل بها ..

وفى الوقت ذاته ، تعالى وقع أقدام (بوريس) ورجاله ، وهم يعدون فى درجات السلم ، لبلوغ المضلة ، من بابها الرئيسى ..

وامتقع وجه (شريف) بشدة ..

وهتفت (ريهام) :

ـ رباه ! لقد وقعنا بين المطرقة والسندان ..

فعلى الرغم من كل ما فعلوه وبذلوه ..

ومن كل ما قاتلوا من أجله ..

وكل ما بلغوه ..

وكل ما حققوه ..

انتهى بهم الأمر هناك ، وسط ثلوج (موسكو) ..

وبينما استعد راكبو الدراجات الثلاثة لقذف قنابلهم ، راح وقع أقدام زملائهم يقترب .. ويقترب ..

ويقترب ..

ولم يعد هناك مفر هذه المرة ..

على الإطلاق .

* * *

٥ـ الأستاذ ..

بدت (سونيا جراهام) أكثر شحوبًا من المعتاد ، وهى تغادر الطائرة الخاصة بالمنظمة ، فى مهبط خاص ، فى مطار (أورلى) فى (باريس) ، وشدّ الجنرال السابق (مارك كروجر) قامته فى اعتداد ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، ويستقبلها فى احترام ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك فى (باريس) ياسيّدتى .. أنا الجنرال (كروجر) .. فى خدمتك .

تجاهلت يده الممدودة إليها ، وهى تقول :

ـ هل أعددتم كل شىء ؟!

انعقد حاجباه فى حنق ، وهو يخفض يده ، ويسرع معها إلى السيارة الكبيرة السوداء ، التى تنتظرها فى طرف المطار ، قائلاً :

- كل شيء مثل ماذا ياسيدتي ؟!

تلفت إلى السيارة في عظمة ، وأشعلت سيجارتها الطويلة الرفيعة ، ونفث دخانها في سقف السيارة ، قائلة :

- عجبًا ! هل تحتاج إلى من يشرح لك طبيعة عملك يا (كروجر) ؟!

بدا عليه الغضب ، وهو يقول :

- كلاً بالطبع .

كانت أول مرة يلتقي فيها بها ، ولكنه لم يشعر تجاهها بالارتياح قط ، وهو يتخذ مقعده ، إلى جوار السائق ، مضيفًا :

- ولكن المفترض أن تخبريني أنت الجديد ياسيدتي

بدت عليها الحيرة لحظة ، قبل أن تنفث دخان سيجارتها مرة أخرى ، والسيارة تنطلق في اتجاهها ، وقالت في شيء من العصبية :

- ليس الآن .

ارتسمت ابتسامة خبيثة على شفتي (كروجر) ، وهو يقول :

- متى إذن يا سيدتي ؟!

قالت في شيء من الصرامة :

- في اللحظة المناسبة .

استرخى في مقعده ، قائلاً :

- بالتأكيد ياسيدتي .. بالتأكيد .

انطلقت بهم السيارة ، في اتجاه (باريس) ، وقد ران عليها صمت مطبق ، وهي تواصل نفث دخان سيجارتها ، في توتر ملحوظ ، جعل (كروجر) يقول ، في محاولة لتهدئة الموقف :

- مستر (X) طلب منا تجهيز سيارة خاصة لك يا سيدتي .. (بورش ٢٠٠٠) ، حمراء اللون ، ذات سقف متحرك .

ارتفع حاجبها الأيسر فى دهشة ، وهى تقول :

ـ من الواضح أنه يعرف ذوقى جيدًا .

ابتسم (كروجر) ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد يا سيدتى .. مستر (X) يعرف كل شىء .

تراقص سؤال ما على شفتيها ، وهى تنفث الدخان مرة أخرى ، إلا أنها لم تلبث أن ابتلعته مع مذاق الدخان ، وهى تسترخى فى مقعدها الخلفى ، وتتطلع إلى (باريس) بشوارعها وجمالها ، وفنونها و ...

« أين السيارة ؟! »

ألقت السؤال ، فى لهفة واضحة ، وهى تعتدل بغتة ، فعاد (كروجر) يبتسم ، وهو يجيب فى هدوء شديد :

ـ نحن نتجه إليها الآن يا سيدتى .

واصلت السيارة السوداء الكبيرة طريقها ، فى قلب (باريس) ، حتى توقفت أمام بناية ضخمة ، فى شارع (شانزليزيه) ، واستدار (كروجر) يناولها سلسلة ذهبية ، فى نهايتها مفتاح سيارة جديد ، وهو يقول :

ـ مفتاح سيارتك يا مدموازيل (كاترين) .. ستجدينها فى الجراج الخاص ، فى هذه البناية .. سندور حول المبنى ، ثم ننتظرك هنا ، فأنت ترين أن التوقف محظور تمامًا ، فى هذه الساعة .

اختطفت مفتاح السيارة ، وهى تقول :

ـ أعلم هذا .

راقبها (كروجر) فى صمت ، وهى تغادر السيارة ، وتتجه نحو المبنى فى خطوات واثقة ثابتة ، ثم قال للسائق فى صرامة :

- در حول المبنى ، وانتظرنى هنا .

غادر السيارة بدوره ، وأسرع خلفها ، وهو يستتر بأعمدة المبنى القديمة ، حتى لا تلمحه ..

رآها تلتف إلى الجراج ، وتلقى نظرة طويلة على البورش الحمراء ، ذات السقف المتحرك ، ثم توقَّف ، وتلتقط هاتفها الخلوى ، وتطلب رقمًا ما ، ثم تتحدث فى اهتمام بالغ ، قبل أن تتجه نحو (البورش) فى حذر ، وتدور حولها فى اهتمام ، ثم تنحنى لإلقاء نظرة أسفلها ، وتفتح غطاءها الأمامى ، لتلقى نظرة على محركها ، وتعاود التحدث فى الهاتف ..

وفى توتر ، غمغم (كروجر) ، محدثًا نفسه :

- يا للئيمة ! من الواضح أنها تستشير خبيرًا ما .. إنها ماكرة بحق ، كما أكد مستر (X) .

رآها تنتهى من فحص السيارة ، ثم تلتف إليها ،

وتنحنى لتفحص عجلة القيادة ، وكل الأسلاك المتصلة بها ، قبل أن تنهى اتصالها ، وتعتدل فى مقعدها ، ثم تدسّ المفتاح فى مكانه ، وتديره ..

ومع إدارته ، تألّقت عينا (كروجر) ، وهو يرفع يديه ليسدّ أذنيه ، قائلاً :

- المقاعد أيتها البارعة .

خُيّل إليه ، على الرغم من بعد المسافة بينهما ، أنها قد سمعت عبارته ، أو أنها قد انتبهت إلى شىء ما فجأة ، فقد انتفضت بغتة ، ثم دفعت باب السيارة ، وحاولت أن تقفز خارجها ، و ...

ودوى الانفجار بمنتهى العنف ..

انفجار رهيب ، سحق (البورش) الحمراء سحقًا ، وأطلق كتلة هائلة من النيران ، جعلت (كروجر) يطلق صرخة عنيفة ، مع موجة اللفح الملتهبة ، التى كادت تعصف به ، لولا أنه احتمى بعمود سميك ، وارتجّت البناية كلها من عنف الانفجار ، ثم

انطلقت صفارات الإنذار ، وتفجّرت المياه من نظم الأمن فى السقف ، فانطلق (كروجر) يعدو خارج المكان ، وهو يهتف :

- يا له من انفجار ! يا له من انفجار ! أراهن على أنهم لن يعثروا على سنتيمتر واحد سليم منها .. يا للبشاعة !

غادر المبنى ، وسط تجمع هائل من البشر ، الذين أسرعوا يستطلعون الأمر ، وسمع من بعيد أبواق سيارات الشرطة والإسعاف والإطفاء ، ورأى سكان البناية يهرعون خارجها ، فى رعب شديد ، فانطلق يعدو إلى الناصية ، ووثب داخل السيارة السوداء الكبيرة ، التى كانت تنتظره هناك ، وسأله سائقها ، وهو ينطلق بها مبتعدًا :

- هل أنجزت مهمتك ؟!

التقط (كروجر) هاتفه ، وهو يهتف فى حماسة :

- بالتأكيد .

قالها ، وأصابعه تضرب أزرار الهاتف فى سرعة ، ولم يكد يسمع صوت محدثه ، حتى قال فى لهفة :

- تم تنفيذ المهمة بنجاح يا مستر (X) .

تألّقت عينا مستر (X) ، وهو يتلقّى الرسالة ، وتراجع فى مقعده فى ارتياح شديد ، وهو يقول :

- عظيم .

ثم أنهى المحادثة ، والتقط قلمه ، وشطب به اسم (سونيا جراهام) ، من قائمة قادة التنظيم ..

إلى الأبد ..

* * *

كل شىء كان يوحى بأن أمر الفريق قد انتهى هناك ..

كل شىء ...

راكبو الدارجات الثلاثة ، الذين يستعدون لقذف قنابلهم ..

و (بوريس) ورجاله ، الذين يقتربون من الجانب الآخر ، بمدافعهم الآلية القوية .. وتنقص الذخيرة فى مسدسات الأبطال الثلاثة ..

و ...

وفجأة ، برزت تلك السيارة ..

سيارة قوية ، من سيارات الدفع الرباعى ، الضخمة الحجم ، والتى تم تزويدها بإطارات خاصة ، للانطلاق على الجليد ، وبدروع إضافية ، لمنع إصابة إطاراتها .. برزت بغتة ، وهى تنطلق بأقصى سرعتها ، نحو راكبى الدراجات الثلاثة ، الذين انتبهوا إليها فجأة ، فاستداروا لمواجهتها ..

وقبل حتى أن تكتمل استدارتهم ، ارتطمت السيارة بأحدهم فى عنف ، ثم انزلقت على الجليد ، لترتطم

بالثانى ، قبل أن تستعيد توازنها ، على نحو يشف عن البراعة الفائقة والمدهشة لقائدها ، فى نفس اللحظة التى اندفع فيها راكب الدراجة الثالثة بعيدًا ، ليحمى نفسه منها ، وهو يستدير لمواجهتها ، مطلقًا صرخة قتالية غاضبة ..

وقذف قنبلته من مدفعه ..

وبمناورة مدهشة بحق ، تفادت السيارة قنبلته ، ثم دارت حول نفسها ، على الأرض الزلقة بالجليد ، وتركت القنبلة تنفجر على مسافة خمسة أمتار منها ، وقائدها يتراجع بها إلى الخلف ، فى سرعة مخيفة ، ليرتطم بالرجل ودراجته ، ويطيح بهما بمنتهى العنف ..

ودون إضاعة لحظة واحدة ، أو معرفة هوية قائد السيارة ، انطلق أبطالنا الثلاثة نحوها ، وقد راودهم شعور قوى بأنها وسيلة نجاتهم الوحيدة ، من الفخ الذى يطبق فكيه عليهم بكل وحشية ..

وفى نفس اللحظة ، اقتحم (بوريس) ورجاله المكان ، وصرخ هو فى غضب هادر :

ـ الحقوا بهم .. انسفوهم نسفًا .

انطلق رجاله يعدون خارجًا ، فى حين انفتح الباب الخلفى للسيارة الكبيرة ، وهتف قائدها فى حزم ، باللهجة المصرية الصرفة :

ـ أسرعوا .. هيا .

وثب الثلاثة داخل السيارة ، التى انطلقت بهم على الفور ، وخلفها وابل من الرصاصات الغاضبة الثائرة ، التى ارتطمت بجسمها المصفَّح ، وارتدت عنه فى عنف ..

وبكل غضب الدنيا ، صرخ (بوريس) :

ـ الحقوا بهم .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، كان راكبو الدراجات الباقون ينطلقون خلف السيارة ، ويطلقون مدافعهم نحوها فى ثورة ..

وفى عصبية شديدة ، انتزع (بوريس) جهاز الاتصال من حزامه ، وهتف عبره فى حدة :

ـ تدخل جديد أيها الزعيم .. أحدهم يعاون المصريين .

احتقن وجه (إيفانوفيتش) ، عندما تلقَّى هذا النداء ، وضغط زر الاتصال فى قوة ، وهو يهتف :

ـ لاتسمح لهم بالفرار يا (بوريس) .. لاتسمح لهم بهذا أبدًا .. اتصل بمدير الشرطة ، وقائد الأمن العسكرى ، وكل من يمكنك الاتصال به ، ولكن لاتسمح لهم بالفرار هذه المرة ..

ثم تحوَّل هتافه إلى صرخة هادرة :

ـ لاتسمح لهم أبدًا .

شعرت (ميرا) بالقلق تجاهه ، وهى تقول فى حذر :

- رويدك أيها الزعيم .. إننى لم أرك قط على هذه الحالة

استدار إليها هاتفًا فى وحشية :

- أية حالة ؟!

تراجعت مغمغمة

- لم أكن أقصد شيئًا .. إننى ...

الغضب المشتعل فى عينيه ، جعلها تؤثر الصمت ، فبترت عبارتها دفعة واحدة ، فى حين راح هو يدور فى المكان كالذئب الجريح ، وكل ذرة فى كيانه تصرخ بغضب هادر ، قبل أن يضرب الجدار بقبضته ، صارخًا :

- من يمكن أن يعاونهم ؟! من يجرؤ على تحدى (إيفان إيفانوفيتش) فى عرينه ؟! من يجرؤ ؟!

استجمعت شجاعتها ، لتقول فى توتر :

إنه ليس روسيًا حتمًا .

استدار إليها ، يسألها فى شراسة :

- ماذا تعنين ؟!

أجابته فى سرعة :

- أى مواطن ، فى (روسيا) كلها ، يدرك عواقب معاونة أعداء (إيفانوفيتش) ، وخاصة بعدما رأى الجميع صورهم ، على شاشة التلفاز ، والمصريون لهم مكتب لمخابراتهم هنا حتمًا .. كل أجهزة المخابرات العالمية لها مقار سرية هنا ، وربما تدخل بعض رجال مكتبهم هنا ، لإنقاذ زملائهم ... ربما .

اشتعلت عيناه بالغضب بضع لحظات أخرى ، قبل أن يختطف سماع جهاز الاتصال ، هاتفًا :

- فليكن .. لقد تحدّوا (إيفانوفيتش) .. أستاذ الجاسوسية والتنظيمات المتكاملة ، فى العالم أجمع ، وسأعرف كيف أحيل حياتهم إلى جحيم .. هم وكل من جرؤ على معاونتهم .

غمغمت (ميرا) ، فى شىء من التوتر :

- بالتأكيد .

راقبته ، وهو يجرى اتصالاته ، بكل مسئول يعرفه فى (موسكو) ، وعيناها تتابعان كل المعلومات ، التى تنهمر على شاشة الكمبيوتر ، من كل مكان فى العالم ..

فلقد انشغل (إيفانوفيتش) بحربه فى (موسكو) ، ونسى عواقب حرب أخرى ، أشعلها دون مبرر منطقى ، فى الجزء الآخر من العالم ..

حرب منظمات (المافيا) .. الروسية ..

والإيطالية ..

* * *

من المؤكد أن قائد السيارة السوداء الكبيرة ، هو أحد أفضل أبرع قائدى السيارات ، فى العالم أجمع ..

لقد كان ينطلق بالسيارة بسرعة مخيفة ، فوق أرض غطاها الجليد ، وصنع منها ساحة تزلج كبرى ..

ليس هذا فحسب ، وإنما كان يناور ويحاور ، ويتفادى انفجارًا إلى يمينه ، وآخر إلى يساره ، وكل من تبقى من راكبى الدراجات الجليدية يطلق عليه النار ، وهو يطارده بمنتهى العنف ..

ومنتهى الشراسة ..

وداخل السيارة ، حاولت (ريهام) أن تخترق ببصرها ذلك الحاجز الزجاجى الداكن ، الذى يفصل بين صندوق السيارة الخلفى ، الذى بدا أشبه بمعمل صغير ، ومخزن للذخيرة ، ووحدة

كمبيوتر ورصد متنقلة ، وكابينة القيادة ، التى يجلس فيها قائد السيارة البارع للغاية ، والذى لم تتضح لهم هويته بعد ، وهتفت تناديه :

- شكرًا لإنقاذك حياتنا .. أنت أحد زملاء مكتب (موسكو) ؟!

قال (علاء) فى حزم ، وهو يلتقط مدفعًا آليًا حديثًا قويًا ، من وسط مجموعة الأسلحة الموجودة ، ويتأكد من حشوه بالكامل :

- لا وقت الآن لهذا .. سنتعارف مع الزميل فيما بعد .. أما الآن ، فلنواجه هؤلاء الأوغاد بما يناسبهم .

التقطت مدفعًا آخر بدورها ، هاتفة :

- صدقت .

تراجع (شريف) إلى الخلف ، هاتفًا فى عصبية :

هل ستتبادلان إطلاق النيران مرة أخرى ؟!

ضرب (علاء) الباب بقدمه ، هاتفًا :

- بالتأكيد .

وفى نفس اللحظة ، التى انفتح فيها الباب الخلفى
على مصراعيه ، انطلقت رصاصات مدفعه ومدفع
(ريهام) كالسيل ..

وانهالت الرصاصات على رجال (المافيا)
الروسية كالمطر ..

وعلى الرغم من المعاطف المضادة للرصاصات
والدراجات القوية ، ومن السيارة التى تترنح فى
قوة ، وهى تنطلق بأقصى سرعتها فوق الجليد
راحت رصاصات (علاء) و(ريهام) تحصد الرجال
بلا هوادة ..

وتساقط رجال (إيفانوفيتش) كالذباب ..

وهتفت (ريهام) فى انفعال :

ـ هيا أيها الأوغاد .. انظروا ما الذى يمكن أن يفعله بكم قتال متكافئ ..

ومن بعيد ، ظهرت قوات الشرطة والأمن العسكرى ، فهتف (علاء) :

ـ مرحى .. للجيش والشرطة انضموا للمعركة .. إننى أتوق لتلقينهم درسًا فى العسكرية المصرية .

هتفت (ريهام) :

ـ وأنا أيضًا .

ولكن فجأة ، انحرف قائد السيارة بها ، خارج الطريق التقليدى ، فاختلّ توازنها ، و (ريهام) تصرخ :

ـ يا إلهى ! ماذا تفعل ؟!

ولكن قائد السيارة ، وثب بها ، وسط غابة من

الأشجار ، وراح ينطلق وسطها كالصاروخ ، على الرغم من تشابكها ، ومن الجليد الذى يواصل تساقطه ، ثم تجاوزها بانحرافة أخرى عنيفة ، مالت بسببها السيارة فى عنف ، حتى كانت تنقلب ، لولا أن سيطر عليها قائدها بقوة مدهشة ، ووثب بها مرة أخرى نحو منطقة وعرة ، انطلق فوقها أيضًا بسرعة كبيرة ، قبل أن يدور حول مرتفع طبيعى ، ثم يتوقّف خلفه دفعة واحدة ..

وفى عصبية هتفت (ريهام) ، وهى تستعيد توازنها أخيرًا :

ـ لماذا فعلت كل هذا ؟! كان ينبغى أن ننسف بعض رءوسهم ، ليتعلموا أن مواجهتنا ليست مجرّد لعبة ، حتى ولو كنا داخل حدودهم .

ارتفع صوت السائق ، وهو يقول فى صرامة :

ـ أهذا ماعلمتكم إياه ؟! إنهم جنود ، يؤدون ما أمرهم به قادتهم فحسب .



وحدقوا فى كابينة القيادة ، التى انزاح حاجزها الزجاجى السميك ..

اتسعت عيون ثلاثتهم فى دهشة كبيرة ، وحدقوا فى كابينة القيادة ، التى انزاح حاجزها الزجاجى السميك ، ليظهر من خلفه وجه مألوف ، يكمل صاحبه فى حزم شديد :

ـ ولكننى قلت : إن القتل أمر بشع ، ولا ينبغى أن يلجأ إليه المرء ، إلا للضرورة القصوى فحسب .. أليس كذلك ؟!

تفجَّر الانبهار ، من كل ذرة فى كيان الثلاثة ، ثم ارتفعت أيديهم فجأة بتحية عسكرية قوية ، خفقت معها قلوبهم فى عنف ، وهم يواجهون آخر شخص ، يمكنهم تصوّر رؤيته فى هذا الزمان والمكان ..

العميد (أدهم صبرى) ..

رجل المستحيل ..

والأستاذ ..

أستاذهم ..

الوحيد ..

* * *

« هنا .. »

نطق مدير المخابرات الكلمة ، فى حزم شديد ، وهو يشير إلى نقطة محدودة ، على خريطة مسار موكب السيد الرئيس ، فانعقد حاجبا (أشرف) ، وهو يغمغم :

ـ الفندق ؟!

أجابه المدير فى حماسة :

ـ نعم .. الفندق .. إنه النقطة الوحيدة ، عبر مسار الموكب كله ، التى لايمكن السيطرة عليها بصورة كاملة ، نظرًا لتواجد عدد كبير من السياح والأجانب .. صحيح أنه يبعد مسافة كبيرة عن

المسار الفعلى ، إلا أن الأسلحة وقاذفات القنابل الحديثة ، يمكنها التصويب على هدف متحرك ، بنصف حجم سيارة الرئيس ، من ضعف هذه المسافة .

سألته (منى) فى اهتمام :

ـ وكيف يُمكن إدخال قاذفات قنابل كهذه ، إلى فندق رسمى ، له طاقم أمن ، ونُظم حراسة ومراقبة إلكترونية ، فى زمننا هذا ؟

التقط زميلها (لبيب) ملفًا كبيرًا ، وهو يلوّح به ، قائلاً :

ـ التقارير الحديثة تؤكد أن مصانع الأسلحة السرية قد أنتجت بالفعل نوعًا من قاذفات القنابل ، المصنوعة مع ذخيرتها بالكامل من الألياف الزجاجية ، بحيث يمكن تهريبها عبر كل البوابات الإلكترونية ، فى الفنادق والمطارات والشركات الكبرى .

هزت رأسها ، قائلة فى حزم :

وهذا يجعل الأمر منطقيًا .

تحرك المدير فى المكان ، وهو يقول :

الموقف شديد الأهمية والحساسية والخطورة يا رجال .. فالسيد الرئيس يرفض من الناحية السياسية المحضة ، تأجيل خطابه السنوى الشهير فى مجلسى الشعب والشورى ؛ نظرًا لأن موعده قد تحدد بالفعل ، منذ ثلاثة أسابيع مضت ، وسيحضره عدد من رؤساء المجالس النيابية ، فى بعض الدول العربية الصديقة ، ثم إننا لا نستطيع التحرك ، إلا بعد أن نتيقن من معلوماتنا ، ونستكملها ، لضرب ضربتنا فى آن واحد ، ونقضى فيها على كل رءوس وأطراف المؤامرة دفعة واحدة ، وإلا أفلت منا الأمر ، وتركنا بعضهم هنا ، يخطط لمؤامرة أخرى ، أو لضربة انتقامية عشوائية عنيفة ، تؤذى المدنيين والعامة .

قال (أشرف) فى سرعة :

أعتقد أنه علينا أن نتحرى عن كل نزلاء الفندق الحاليين ، وكل من حجز حجرة فيه ، خلال مرور الموكب .

أشارت (منى) بسبابتها ، مضيفة :

ويمكننا أن نختصر البحث ، ونقصره على أولئك الذين يحتلون الحجرات ، المواجهة للمسار فحسب .

هزّ (لبيب) رأسه ، قائلاً :

أخالفك الرأى أيتها الزميلة ، فربما يحتلّ الإرهابيون الحجرات المطلّة على النيل ، حتى تحين اللحظة المناسبة ، فيقتحمون حجرات تطلّ على مسار الموكب ، لتوجيه ضربتهم .

قالت فى حماسة :

- أنت على حق .. وينبغى فى الوقت ذاته أن نراجع كل قوائم الوصول ، خلال الأسابيع الثلاثة الماضية ، وإن نترك للكمبيوتر مهمة مقارنة صورتى (هانز بيتريتش) و(شوكت كمال) مع صور كل القادمين ، من كل أنحاء العالم .

أشار إليها المدير ، قائلاً فى حزم :

- بالضبط .. وعلينا أيضًا إبلاغ حرس الحدود ، وحرس السواحل ، وقوات الدفاع الجوى ، وحتى الغوّاصات ، لمراقبة حدودنا بمنتهى الدقة ، خلال الساعات القادمة ، مع جمع كل التحريات الممكنة ، حول عمليات التهريب ، والتجاوزات الحدودية غير الشرعية ، فعملية بهذه الضخامة ، تحتاج إلى صفقة أسلحة كبيرة ، وإلى تهريبها إلى داخل البلاد ..

ثم شدّ قامته ، مضيفًا فى صرامة :

- ولكن أهم عامل ، ينبغى أن نحرص عليه جميعًا ، هو الوقت أيها السادة .. الوقت .. الوقت .. الوقت .

أومأت (منى) برأسها متفهمة ، مع زميليها ، ثم ألقت نظرة على ساعتها فى توتر شديد ، وأعماقها تحمل ألف تساؤل قلق ..

أيًا كانت الوسيلة ، التى اتخذها (أدهم) للوصول إلى (موسكو) ، فلاريب فى أنه هناك بالفعل ، منذ ما يزيد على الساعة ..

وخفق قلبها فى عنف ، مع السؤال التالى ..

ترى ماذا سيكون مصيره هناك ، بحالته الصحية هذه ؟!

ماذا ؟!

ماذا ؟!

* * *

ارتسمت ابتسامة هادئة على شفتى (أدهم) على الرغم من وجهه الشاحب ، وهو يقول :

- المدنيون لا يؤدون التحية العسكرية يا (شريف).

عبارته هذه انتزعتهم من حالة الانبهار والانفعال ، التى صنعها ظهوره المباغت ، فهتفت (ريهام) ، وهى تخفض يدها :

- سيادة العميد ؟! رباه ! لم أتوقع رؤيتك هنا قط !

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

- الواقع أن الرحلة لم تكن سهلة أبدًا .. لقد استخدمت خلالها ثلاث طائرات ، عبر ثلاث دول أوروبية ، قبل أن تنقلنى طائرة انتحارية خاصة ، متفادية كل مسارات الرادارات ووحدات الدفاع الجوى ، إلى مشارف (موسكو) ، حيث كانت تنتظرنى هذه السيارة .

ثم أشار بيده حوله ، مستطردًا :

- وكما ترون ، إنها تحفة تكنولوجية على أرقى وأحدث مستوى ، فهى عبارة عن سيارة مصفحة ، برقائق من الصلب والتيتانيوم ، القادرة على احتمال انفجار قنبلة يدوية محدودة ، وإطاراتها تحميها دروع خاصة ، من الإصابات والانزلاق وعوائق الطرق ، ومحركها أشبه بمحرك طائرة ، حتى يمكنه تحريك كل هذا الثقل ، بسرعة تصلح للإفلات من مطاردة شرسة ، وبداخلها ستجدون مخزنًا كاملاً للأسلحة والذخائر ، ومعمل كيميائى مدهش ، سيسيل له لعابك يا (ريهام) ، مع أحدث أجهزة الكمبيوتر ، التى تتصل بشبكات الإنترنت مباشرة ، عبر أطباق إرسال واستقبال رقمية ، من الأقمار الصناعية .

غمغم (شريف) :

- هذا يسيل لعابى أنا .

ابتسم (أدهم) ، قائلًا :

- اطمئن .. ستكون لديك الفرصة لاستغلال كل إمكانياتها قريبًا .

تساءل (علاء) فى حيرة :

- ولكن كيف أمكن نقل سيارة كهذه إلى هنا ، بهذه السرعة الكبيرة يا سيدى ؟!

أجابه (أدهم) فى هدوء :

- هذه السيارة لم تُنقل من أى مكان .. لقد تم إنتاجها هنا بالفعل ، فى فرع شركة (أميجو) ، الذى تم افتتاحه فى (موسكو) منذ عدة أشهر .

تساءلت (ريهام) فى دهشة :

وما علاقتنا نحن بشركة (أميجو) هذه ؟!

ابتسم فى غموض ، مجيبًا :

- علاقة وثيقة .

لم يفهم أحدهم ما يعنيه (أدهم) ، ولكنهم لم يحاولوا إلقاء أية أسئلة حول الأمر ، وإنما تساءل (علاء) فى انبهار :

- ولكن كيف عثرت علينا يا سيادة العميد ؟!

تنهد (أدهم) قائلاً بابتسامة هادئة :

- لقد صنعتم ضجة تكفى لجذب نصف رجال المخابرات فى العالم .. إنكم تذكروننى بشبابى بالفعل .

ثم هز رأسه ، متابعًا :

- الواقع أننى ، عندما أتيت إلى هنا ، لم أكن أتصور أننى سأجدكم على قيد الحياة ، بعدما رصد

مراقبونا وصول جارك الدكتور (رأفت كاظم) يا (علاء) ، واستقبال رجال (المافيا) الروسية له .

خفض (علاء) عينيه ، متمتمًا فى مرارة :

ـ كان بمثابة عمى ، منذ وعت عيناى الدنيا .

ربّت (شريف) على كتفه ، قائلاً :

ـ الرجل بذل حياته ، لمنحك فرصة للفرار .

ارتفع حاجبا (أدهم) لحظة فى دهشة ، إلا أنه لم يعلق على ما سمعه ، وهو يقول فى حزم :

ـ والآن ، أريد أن تخبرونى بكل ما حدث ، منذ فقدنا اتصالنا المباشر بكم ، وحتى هذه اللحظة .

تململ (شريف) فى وقفته ، وهو يقول :

ـ سيادة العميد .. لايمكنك أن تتصور مقدار ماشعرنا به من ارتياح وأمان ، بعد ظهورك

المباغت ، ولكن ألا يبدو لك أن الوقت لايناسب رواية طويلة كهذه ، خاصة وأن قوات (موسكو) لن تعود الى ديارها ، لمجرد أنك قد قمت بمناورة مدهشة كهذه .. إنهم سيواصلون البحث والتنقيب ، و ...

قاطعه (أدهم) بإشارة من يده ، قائلاً فى حزم :

ـ لن يبحثوا عنا هنا أبداً .

استفزّت العبارة الحازمة الواثقة (ريهام) فتساءلت فى حيرة متوترة :

ـ وما الذى سيمنعهم من هذا ؟!

مال نحوها وبدت لها ابتسامته غامضة للغاية ، وهو يجيب :

ـ لأنهم يطاردوننا الآن بالفعل .

انتفض جسدها فى عنف ، وحدقت فى وجهه بدهشة بالغة ، لأنها لم تفهم ما يعنيه ..

لم تفهم أبدًا .

* * *



٦ ـ العمالقة ..

هزّ خبير المتفجرات الفرنسى رأسه فى توتر ، وهو يقف فى جراج تلك البناية القديمة ، فى (الشانزليزيه) ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ يدهشنى حقًا أن الانفجار لم يؤثر فى أساسات البناية ! لقد انسحقت السيارة سحقًا ، وامتد التأثير العنيف إلى السيارات المجاورة ، لمسافة ستة أمتار على الأقل .

سأله مفتش الشرطة فى اهتمام :

ـ وماذا عن ركاب السيارة ؟!

أشار الرجل بيده ، هاتفًا :

ـ ركّابها ؟! أى شخص على مسافة ستة أمتار

منها سيلقى مصرعه ، دون أدنى شك يا رجل ، حتى لو كان يرتدى ثوبًا مضاداً للرصاصات ، فما بالك بمن داخلها ، أو على مسافة متر أو مترين منها ؟! إنه سينسحق سحقًا ، بلا رحمة ، حتى لن يتبقى منه حتى ما يصلح للفحص .

غمغم الطبيب الشرعى فى إرهاق :

ـ أنت على حق يا رجل .. إننا نعمل منذ مايقرب من الساعة ، ولم نعثر سوى على أشلاء آدمية ، وعظام مهشمة ، وبقايا محترقة ، حتى إننا مازلنا عاجزين عن تحديد هوية أصحابها أو عددهم .

ثم زفر فى توتر ، وهز رأسه فى قوة ، قبل أن يتابع :

يبدو أنها ستصبح قضية مرهقة بحق ، والصحافة لن ترحمنا حتمًا .

زفر مفتش الشرطة بدوره ، وهو يقول :

ـ على الأقل ، لستم مضطرين لمواجهة الصحافة مباشرة مثلنا ، فأسوأ ما فى موقفنا ، هو أن الكل يطالبنا بالنتائج ، منذ اللحظة الأولى ، وكأننا سحرة ، ولسنا بشرًا مثلهم .

اتجه نحوه أحد رجاله ، فى هذه اللحظة ، وهو يناوله أحد أكياس الأدلة ، قائلاً فى اهتمام :

ـ هذا كل ما عثرنا عليه .

اعتدل مفتش الشرطة ، وهو يلتقط الكيس فى اهتمام ، ويلقى نظرة على محتوياته ، قائلاً فى حيرة :

ـ وما هذا بالضبط ؟!

مال الطبيب الشرعى نحوه ، قائلاً :

ـ إنه جزء من إصبع بشرى ، وحوله خاتم له شعار خاص جداً ، كما يبدو من هيئته .

عاد مفتش الشرطة يتطلع إلى الخاتم ، وهو يغمغم فى حيرة :

- ربما يكون هذا طرف الخيط ، ولكن أى شعار هذا ؟!

قالها ، وهو يتطلع إلى الخاتم البلاتينى الأنيق ، الذى تراصت فوقه فصوص من الماس النقى ، لتصنع رسمًا لأفعى ، على شكل حرف (S) باللغة الإنجليزية ..

الشعار الذى ترتديه دومًا (سونيا) ..

(سونيا جراهام) ..

* * *

فى نفس اللحظة ، التى انحرفت فيها سيارة (أدهم) فى حدة ، وسط مجموعة الأشجار ، وثبت سيارة مماثلة لها تمامًا ، عائدة إلى الطريق ..

سيارة هى نسخة طبق الأصل من سيارته ، فى هيئتها الخارجية ..

وفى أنها تنطلق وحدها ، دون سائق ، عن طريق جهاز خاص ، مزوّد بخريطة إلكترونية للطرق ، يمكن تشغيله من بعيد ..

وبالنسبة لمن تبقّى من رجال (المافيا) الروسية ، ومن تبعهم من قوات الشرطة والأمن العسكرى ، بدا وكأن المطاردة متصلة بلا انقطاع ..

ولأن السيارة البديلة كانت تنطلق بأقصى سرعتها ، فقد انطلق الكل خلفها ، بكل السرعة ، والقوة ، والشراسة ، وراحوا يمطرونها برصاصاتهم بلا هوادة ، وبكل سخاء وعنف الدنيا ..

واخترقت الرصاصات جسم السيارة البديلة ، وهى تواصل انطلاقها بأقصى سرعتها ، مسترشدة بجهاز القيادة الإلكترونى ، الذى أوحى للمطاردين

بوجود سائق ماهر ، خلف عجلة قيادتها(*) .

كانت تحفة أخرى ، من تحف مؤسسة (أميجو) ، طلب (أدهم) إعدادها ، وهو فى طريقه إلى (موسكو) ، بعد أن وضع فى ذهنه خطة المعركة القادمة ، وإن لم يتصور لحظتها أنه قد يستخدمها لإنقاذ فريقه ..

وداخل السيارة ، التى تنطلق بأقصى سرعتها ، بدأ العدّ التنازلى لقنبلة زمنية محدودة ، والسيارة تدور حول أحد المنحنيات ، والرصاصات تنهال عليها كالمطر من المطاردين ، والغاضبين ، و ...

وفجأة ، دوى الانفجار ..

(*) الجيل السابع من سيارات (B.M.W) ، يمتلك جهاز قيادة إليكترونى ، يمكنه السير بالسيارة دون سائق ، عبر طرقات العواصم الكبرى ، مسترشدًا بخريطة إلكترونية خاصة ، من خلال الأقمار الصناعية .

انفجرت السيارة البديلة بمنتهى العنف ، وقفزت لارتفاع أربعة أمتار كاملة ، وهى تتمزق تمزيقًا وتطلق كتلة لهب مخيفة ..

ثم انهارت مرة أخرى على الأرض ، لترتطم بها فى عنف ، وتتناثر على مساحة شاسعة لأقصى حد ..

وتوقّف المطاردون كلهم دفعة واحدة ، وهم يتطلّعون إلى ذلك الانفجار الرهيب ، الذى بلغ دويه مسامع الآلاف من سكان (موسكو) ، قبل أن يبدأ فى التلاشى تدريجيًا ، والنيران تتصاعد من الحطام إلى عنان السماء ..

ولثوان ، وقف (بوريس) يتابع المشهد الرهيب ، قبل أن يلتقط جهاز الاتصال من حزامه ، ويضغط زره ، قائلاً :

ـ هنا (بوريس) أيها الزعيم .. أخيرًا أمكننا القضاء عليهم جميعًا .. لقد سحقناهم سحقًا .

هتف به (إيفانوفيتش) فى لهفة :

- أنت واثق هذه المرة ؟!

أجابه (بوريس) فى حزم :

- تمام الثقة أيها الزعيم .

قال (إيفانوفيتش) فى ارتياح ظافر :

- عظيم ..

ثم أنهى الاتصال فورًا ..

« خطة عبقرية يا سيادة العميد .. »

هتف (شريف) بالعبارة فى انبهار ، وهو يتطلع إلى (أدهم) باحترام شديد ، فى حين هزت (ريهام) رأسها ، قائلة بنفس الانبهار :

- إذن فنحن بالنسبة إليهم موتى الآن .

قال (علاء) فى سرعة :

- ليس لوقت طويل .. سرعان ما يفحصون الحطام ، ويدركون أننا لم نكن داخل السيارة .

جلس (أدهم) فى هدوء ، قائلاً بابتسامة واثقة :

- عندئذ سيكون كل شىء قد انتهى .

تطلع إليه الثلاثة فى تساؤل حائر فتابع بنفس الثقة :

- منذ فترة طويلة ، ونحن نحاول إيجاد وسيلة لاقتحام قصر (إيفانوفيتش) وتدميره ، ولكن كانت تنقصنا المعلومات الأساسية ، عن القصر ، ونظم الأمن المتبعة داخله ، وتخطيط الحركة فيه وما حدث معكم ، منحنا الآن هذه المعلومات ، ولو أننا أحسنا استثمار الدقائق القادمة ، سيكون باستطاعتنا مباغتة (إيفانوفيتش) ورجاله بهجوم مركز ساحق .

سألته (ريهام) فى حذر :

ـ ما المقصود بلفظ (نحن) هذا يا سيادة العميد ؟!

لوّح (أدهم) بيده ، قائلاً :

ـ المقصود هو أربعتنا .

اتسعت عيونهم فى دهشة بالغة ، وهم يتبادلون نظرة متوترة للغاية ، حتى قال (علاء) فى قلق شديد :

ـ ولكننا أربعة فحسب يا سيادة العميد ، وهناك جيش يحمى قصر (إيفانوفيتش) .

قال (شريف) فى توتر أكثر :

ـ بالإضافة إلى أن قصره وكل الأسوار المحيطة به ، أشبه بقلعة من التكنولوجيا ، وحصن من أقوى وأحدث نظم الأمن الإلكترونية المعروفة .

تطلّع إليهم (أدهم) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فقد نجحتم فى الفرار من المكان .

قال (علاء) :

ـ ربما لأنهم ركّزوا كل قوتهم على منع الدخول إلى القصر ، وليس الخروج منه .

قال (أدهم) فى حزم أكبر :

ـ هذا يعنى أنهم ليسوا بارعين تمامًا ، فى وضع نظم الأمن ، وأن الثغرة المعتادة ، فى كل نظم الأمن ، أكبر من حجمها المألوف ، بالنسبة لهم .

هزّت (ريهام) رأسها ، قائلة فى عصبية :

ـ لم يبد لى الأمر كذلك ، عندما كنا هناك .

أشار (أدهم) بسبّابته ، قائلاً :

ـ مشكلة ثغرة الأمن أنها ـ وعلى الرغم من أن أحدًا لا ينتبه إليها ـ تكون دائمًا أكبر مما يمكن



أشار إليه (أدهم) بسبّابته ، وهو يقول بابتسامة غامضة :
- أنت

تصوّره ، لو استطعت النظر إليها ، من الزاوية الصحيحة .

سأله (شريف) فى حيرة :

- هل تعنى يا سيّدى أنه توجد بالفعل ثغرة ما ، فى الجدار الأمنى الفولاذى الشهير ، لقصر (إيفانوفيتش) ؟!

تألّقت عينا (أدهم) ببريق عجيب ، وهو يرفع سبّابته أمام وجهه ، قائلاً :

- بالتأكيد .. توجد ثغرة كبيرة للغاية ، تكفى لعبورنا جميعًا ، إلى قلب كيانه الرهيب .

سأله (شريف) فى حيرة أكبر :

- وما هى الثغرة بالضبط ؟!

أشار إليه (أدهم) بسبّابته ، وهو يقول بابتسامة غامضة :

- أنت .

ارتفع حاجبا (شريف) لحظة فى دهشة ، ثم لم يلبث أن خفضهما ، وهو يتمتم :

ـ آه .. فهمت .

لم تحاول (ريهام) سؤاله عما فهمه ، وإنما تعلقت عيناها بنظرة أستاذها (أدهم) ..

تلك النظرة ، التى بدت لها ، وكأنها تحمل لمحة ، لم تعهدها فيها من قبل قط ..

لمحة من الغضب ..

كل الغضب ..

* * *

« الطقس يزداد سوءًا فى (موسكو) يا (دونا) .. »

نطق (بنيتو) ، محامى دونا (كارولينا)

العبارة فى توتر ، وهو يقف فى حجرة (دونا) ، فى مستشفاها الخاص ، فبدا عليها الغضب ، وهى تقول :

ـ وهل سننتظر حتى يتحسَّن الطقس ، لنلقِّن هذا الحقير الدرس اللازم ، ليدرك فداحة ما فعله بنا ؟!

قال فى شىء من الصرامة :

ـ ربما اضطررنا للانتظار أطول من هذا يا (دونا) .

هتفت فى عناد :

ـ مستحيل !

صاح بها ، فى حدة مباغتة :

ـ المستحيل هو ما تفعلينه بنا الآن يا (دونا) .

اتسعت عيناها فى دهشة مستنكرة ، وهى تهتف :

- (بنيتو) .. كيف تجرؤ ؟!

هزّ المحامى رأسه فى عصبية ، قائلاً :

- رويدك يا (دونا) .. انتزعى ذلك الغضب العنيف ، الذى يعصف بعقلك وحكمتك ، وإلا خسرنا كل شىء .

أشارت إلى إصابة صدرها ، قائلة فى غضب :

- وما الذى يمكن أن نخسره ، أكثر من هذا ؟!

أجابها بنفس العصبية :

- كل شىء يا (دونا) .. كل شىء .

والتقط نفسًا عميقًا ، محاولاً السيطرة على أعصابه ، قبل أن يضيف :

- يمكننا أن نخسر كل شىء يا (دونا) .. سمعتنا .. هيبتنا .. غطاءنا القانونى .. احترام العائلات

الأخرى(*) .. رجالنا .. وربما ملايين الجنيهات أيضًا .. والأسوأ أننا سنخسر كل هذا دون طائل .

انعقد حاجباها ، دون أن تنبس ببنت شفة ، وهو يتابع :

- إننا لم نعتد قط القيام بضربات ثأرية سريعة حمقاء ، دون إعداد دقيق ، وتخطيط متقن ، وروية لتهدئة الأعصاب ، وإحكام السيطرة على الأمور .. ربما أغضبنا وأغضب العائلات كلها ما حدث هنا .. وربما كان (إيفانوفيتش) وحشًا قذرًا ، فى فعلته هذه ، ولكنه مازال يحكم سيطرته على (موسكو) بقبضة من فولاذ ، وحتى نواجهه على أرضه ، نحتاج إلى قوة هائلة ، ونفوذ لا محدود ، لانمتلكه هناك بالفعل .. ثم إنه هناك احتمال كبير أن يكون

(*) اعتاد كل رجال (المافيا) أن يطلقوا على عصاباتهم وتنظيماتهم اسم العائلة ، وهم يتكونون من عدة عائلات ، تخضع كلها لزعامة أب روحى واحد .

كل هذا مجرّد فخ ، أو وسيلة لاستفزازنا ، ودفعنا إلى الخروج من منطقة نفوذنا وقوتنا ، للقضاء علينا تمامًا .

قالت فى عصبية ، وإن نجحت كلماته فى إقناعها :

ـ هل نتركه يفلت بفعلته إذن ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ كلاً بالطبع .

ثم ضمّ قبضته ، وهو يضيف فى غضب واضح :

ـ سنعدّ كل العدة لمواجهته ، وسنعقد اجتماعاتنا مع زعماء كل العائلات الأخرى ، وسنبحث بمنتهى الحكمة والروية عن الأسلوب الأمثل لرد الضربة ، وعن وسيلة ذكية ، لدفع (إيفانوفيتش) إلى الخروج من حصنه ، وعندئذ ..

لم يتمّ عبارته ، ولكن كلماته كانت واضحة تمامًا ، فازداد انعقاد حاجبيها ، وارتجفت شفتاها ، وهى تشعر بآلام متضاعفة فى صدرها ، مع قولها :

ـ وماذا عن (أدهم) ؟!

هتف (بنيتو) فى حدة :

ـ وماذا عنه ؟!

تساءلت فى عصبية :

ـ هل سنتركه يخوض معركته وحده ؟!

ارتفع حاجباه بدهشة كبيرة ، ثم لم يلبث أن عقدهما فى غضب مستنكر ، وهو يهتف :

ـ (دونا) .. هل ستجازفين بكيان (المافيا) كله ، من أجل (أدهم) هذا ؟! هل ستتخلين عن زعامتك للعائلات كلها ، وتتركين الفرصة لأحد زعماء العائلات الأخرى ، ليتسيّد الموقف كله ، من أجل رجل واحد ؟! هل ستتنازلين عن مكانة

العائلة ، التى صنعها دون (كيرليونى) بالرصاص والدم ، عبر تاريخ طويل ؟! هل ؟!

ارتجفت شفتا (كارولينا) أكثر ، وتزايدت آلام إصابتها إلى حد غير محتمل ، وهى تشيح بوجهها ، فى محاولة لإخفاء تلك الدموع ، التى تجاهد للانحدار من عينيها ، وهى تغمغم :

- كلا .

موقعها ومسئولياتها كانت تفرض عليها هذا القول ، أما قلبها ، فقد كان يبكى بدموع من الدم ، من أجله هو ..

من أجل الرجل ..

رجل المستحيل ..

* * *

راجع (شوكت كمال) أرقامه وحساباته فى اهتمام شديد ، قبل أن تتألق عيناه ، ويلوّح بالورقة النهائية فى حماسة ، هاتفًا :

- صفقة رابحة للغاية يا رجل .

ثم التفت إليه ، مستطردًا :

- هل تعلم كم سيبلغ صافى أرباحنا من هذه الضربة يا رجل ؟! أكثر من أربعة وعشرين مليونًا من الدولارات ، لو اقتصدنا فى بعض المصروفات غير الأساسية .

وانطلق يضحك فى ظفر جشع ، قبل أن يضيف :

- هذا أفضل من عملنا المعتاد مرتين ونصف على الأقل .

غمغم (هانز) ، فى شىء من العصبية :

- ولكنه أكثر خطورة .

تلاشت ابتسامة (شوكت) ، وهو يعيد الورقة إلى المائدة ، متسائلاً فى حذر :

- لماذا العصبية الآن ؟!

قال (هانز) فى حدة :

ـ أنا الذى أتساءل : كيف يمكنك أن تكون بهذا المرح ، ونحن ننتظر موعد استلام الصفقة ، خلال أقل من الساعة .

نهض (شوكت) ، متسائلاً :

ـ وبمَ تفيد العصبية ؟!

قال (هانز) :

ـ لن تضرّ على الأقل .

ثم لوّح بيده ، مستطرداً :

ـ ولكن ألم يقلقك أن أحداً لم يحاول الاتصال بنا ، حتى هذه اللحظة ، لتحديد مكان التسليم على الأقل ؟!

هزّ (شوكت) كتفيه ، وقال :

ـ أنت تعرف طبيعة ذلك الوغد الروسى السادى .. ربما يرغب فى تغيير الخطة ، فى اللحظة الأخيرة .

قال (هانز) فى حدة :

ـ ألا تريد أن يثير هذا عصبيتى ؟!

ضمّ (شوكت) قبضته ، ولوّح بها ، قائلاً :

ـ بل أريد منك أن تصبح أكثر قـوة وتماسكاً ، كشأنك دائمًا .

هزّ (هانز) رأسه فى توتر شديد ، وهو يقول :

ـ لست أدرى لماذا أشعر بالقلق ، فى هذه المرة بالذات ، ولماذا أشعر وكأن ..

قبل أن يتم عبارته ، اقتحم أحد الرجـال المكان ، وهو يهتف فى عصبية :

ـ قوات الأمن المصرية تحاصر الفيلا .

اتسعت عينا (شوكت) فى ارتياع ، وهو يهتف :

ـ ماذا ؟!

أما (هانز) ، فقد انتفض جسده فى عنف ، وصاح بكل الغضب :

ـ آه .. هذا ما كنت أخشاه .

ثم سحب مسدسًا من حزامه ، وصاح فى الرجل :

ـ استعدوا للقتال .. فليحمل كل منكم مدفعه الآلى ، و ...

قاطعه الرجل فى عصبية شديدة :

ـ أى مدفع آلى .. أقول لك : إن قوات الأمن المصرية تحاصر الفيلا كلها .. إنهم أكثر من مائتى رجل ، وعشرين سيارة ، وكلهم مسلحون بالمدافع الآلية ، وكلنا هنا ستة رجال فحسب ، ولو أطلقنا رصاصة واحدة ، ستنهال علينا آلاف الرصاصات .

صاح (هانز) فى حدة :

ـ لا يمكننا أن نستسلم بهذه السهولة .

أجابه (شوكت) فى عصبية :

ـ بل هذا أفضل ما يمكن أن نفعله يا رجل .. لو أنهم ألقوا القبض علينا الآن ، فأكبر تهمة يمكن توجيهها إلينا ، هى دخول البلاد بجواز سفر زائف ، أما لو قتلنا جنديًا واحدًا ، فسوف يصبح الاتهام هو ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع نداء بالألمانية السليمة ، عبر مكبّر صوتى قوى ، يقول :

ـ (هانز ديتريتش) و (شوكت كمال) .. هنا قوات الأمن المصرية .. نحن نعلم كل شىء عنكم ، ونطالبكم بالاستسلام فورًا ، وإلا فسنضطر لاقتحام المكان ، وإطلاق النيران فى المليان .

انعقد حاجبا (هانز) فى عنف ، فى حين قال (شوكت) فى عصبية شديدة :

ـ مستحيل ! كيف خسرنا كل شيء دفعة واحدة .. كيف ؟! لقد كان كل شيء يسير على مايرام !! كيف ؟!

تكرر النداء مرة أخرى باللغة التركية ، فتابع فى انهيار :

ـ دعنا نستسلم يا (هانز) .. رجالنا سيحاولون إخراجنا فيما بعد بأية وسيلة .

وقال الرجل الآخر ، فى توتر بلا حدود :

ـ أظن أنه ليست أمامنا وسيلة سوى الاستسلام بالفعل .

صرخ (هانز) :

ـ مستحيل !

مع نهاية صرخته ، عاد ذلك الصوت يقول بالألمانية ، عبر مكبر الصوت :

ـ لقد تم إحباط صفقة الأسلحة كلها .. رجال حرس الحدود ألقوا القبض على الكل ، عند الحدود المصرية الإسرائيلية .. العملية بالكامل تم كشفها .. لم يعد أمامكم سوى الاستسلام فورًا ، أو ...

قبل أن يتم حديثه ، صرخ (هانز) ، وهو يندفع نحو النافذة :

ـ قلت لا ... لا !!!!!!!!!

اتسعت عينا الرجل الآخر فى رعب ، عندما حطم (هانز) زجاج النافذة بقبضته ، ثم راح يطلق النار عبرها فى غضب ..

ولم تنطلق من مسدسه سوى ثلاث رصاصات فحسب ..

ثم انهالت رصاصات قوات الأمن المصرية على المبنى كالمطر ..

واخترقت الرصاصات جسد (هانز) ، وانتزعته من مكانه فى عنف ، لتلقى به جثة هامدة ، عند قدمى (شوكت) ، الذى انبطح أرضًا ، بكل ذعر الدنيا ، وراح يصرخ :

- أيها الأحمق الغبى .. كان لابد أن تستسلم .. لابد ..

وفى نفس اللحظة ، التى اقتحم فيها رجال الأمن المصرى الفيلا ، وهم يمطرونها برصاصاتهم وقنابلهم المسيّلة للدموع ، كان (أشرف) يطرق باب شقة (نيكولاس) فى هدوء ، وانتظر حتى فتح اليونانى الآخر الباب ، ليقول باليونانية :

- هل لى أن أقابل السيد (نيكولاس ديمترى) ؟!

حدّق اليونانى فيه بدهشة ، قبل أن يقول فى عصبية ، وهو يدفع الباب فى وجه (أشرف) :

- لايوجد هنا من يحمل اسم (نيكولاس) ، أو ...

قاطعه (أشرف) فى صرامة ، وهو يعترض مسار الباب بقدمه ، ثم يدفعه بكفه فى غلظة :

- أخبره أننى رجل أمن (مصرى) ، وأن ...

قبل أن يتم (أشرف) عبارته ، انتزع اليونانى من ثيابه مسدسًا بغتة ، ورفعه فى وجهه ، و ...

وبسرعة مدهشة ، أمسك (أشرف) معصم الرجل ، وهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، ثم لوى معصمه ، وأجبره على إفلات مسدسه ، وهو يدير ذراعه خلف ظهره فى قوة ، هاتفًا :

- أنت رهن القبض .

ظهر (نيكولاس) فجأة ، فى هذه اللحظة ، ووجهه محتقن بشدة ، وهو يقول فى خشونة :

- إذن فأنت تبحث عنى .

ثم مدّ يده المعتنية إلى الأمام ، مستطردًا :

- فليكن .. هأنذا .

لم يكن (أشرف) يجهل أمر اليد المعدنية الشهيرة لليونانى (نيكولاس ديمترى) ، ولكن الطريقة التى صوبها إليه بها ، وتلك النظرة الوحشية فى عينيه ، جعلا (أشرف) يجذب اليونانى الآخر نحوه بحركة سريعة ..

وفى نفس اللحظة ، انطلقت الرصاصات ، من السلاح السرى ، داخل يد (نيكولاس) المعدنية ..

واخترقت الرصاصات جسد اليونانى الآخر ، الذى اتسعت عيناه فى ألم وارتياع وهو يطلق صرخة مخيفة ، فى نفس اللحظة التى استلّ فيها (أشرف) مسدسه ، وأطلق النار نحو (نيكولاس) الذى تراجع صارخًا :

- لا .. لن تنتهى حياتى فى سجن حقير .. لا ..

أصابته الرصاصات فى ذراعه وكتفه ، وتراجع

مرة أخرى فى ألم ، فاندفع (أشرف) نحوه ، ودفع جثة اليونانى الآخر جانبًا ، وهو ينقضّ عليه كالليث ، ويهوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، هاتفًا :

- وماذا تفضّل .. قبرًا مظلمًا ؟!

أطلق (نيكولاس) خوارًا عجيبًا ، وقاوم فى شراسة ، وهو يحاول إمالة ذلك السلاح الخفى ، فى يده المعدنية ، نحو رأس (أشرف) ، الذى هوى على فكه بلكمتين أخريين ، قائلاً :

- هيا .. افقد وعيك أيها الحقير ، بدلاً من أن أغرس رصاصتى القادمة فى رأسك مباشرة .

انطلقت رصاصة أخرى من سلاح (نيكولاس) مع الكلمة الأخيرة ، التى حطمّ بها (أشرف) أسنانه ، ليهوى فى غيبوبة عميقة ..

واندفع باقى رجال المخابرات داخل المكان ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها (أشرف) واقفًا ، ليهتف به (لبيب) :

ـ هل أصابك ؟!

هزّ (أشرف) رأسه نفيًا ، وقال والرجال يندفعون نحو (نيكولاس) ويحيطون معصميه بأغلال معدنية :

ـ لقد مزّق كم سترتى فحسب .

ابتسم (لبيب) وهو يقول :

ـ حمدًا لله .

سأله (أشرف) فى اهتمام :

ـ هل من أخبار عن الفريق الآخر ؟!

أومأ (لبيب) برأسه ، قائلاً :

ـ لقد أنهوا مهمتهم بنجاح ، ولكن الألمانى لقى مصرعه ، مع اثنين من رجاله ، وصفقة الأسلحة تمت مصادرتها بالكامل

ثم التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

ـ أعتقد أنه يمكننا الآن إغلاق ملف عملية الاغتيال الكبرى هذه ، بعد أن تم إحباطها بالكامل ، ونقل التبعية كلها إلى نيابة أمن الدولة العليا ، لتباشر تحقيقاتها ، وتعلن الأمر رسميًا .

تنهد (أشرف) فى عمق ، وهو يقول :

ـ عظيم .. عملية أخرى ناجحة .

ثم شرد ببصره ، مضيفًا :

ـ فلنأمل أن تفوز عملية (موسكو) بنصيب مماثل ..

نطقها ، دون أن يدرى أن عملية (موسكو) كانت تمرّ الآن بأدق مراحلها ..

وتستعد لخوض أخطر جولاتها ..

الجولة الأخيرة .

* * *

٧ـ العد التنازلى ..

جرت أصابع (شريف) على أزرار جهاز الكمبيوتر الحديث للغاية ، داخل تلك السيارة التكنولوجية ، الرابضة وسط الأشجار ، وتحت الجليد المنهمر ، الذى كساها بطبقة بيضاء ، جعلت تمييزها عسيراً ، وسط ما يحيط بها ، ثم لم يلبث أن تنهد فى انبهار ، قائلاً :

ـ رائع .. إنها أجهزة يحلم أى عاشق للتكنولوجيا بالعمل عليها .

قال (أدهم) ، وهو يجذب مشط مسدسه فى قوة :

ـ المهم أن تؤدى بها المطلوب منك بالضبط .

استدار إليه (شريف) ، قائلا :

ـ لاختراق الجهاز الأمنى لقصر (إيفانوفيتش) ، والسيطرة عليه ، وإيقافه تماماً ، ليس بالعمل السهل .

هتفت به (ريهام) :

ـ ما الذى تعنيه بهذا ؟!

ابتسم ، قائلاً :

ـ أعنى أنه تحد يروق لى كثيراً .

سأله (علاء) فى قلق :

ـ المهم .. هل يمكنك القيام بهذا ؟!

هزّ (شريف) رأسه ، قائلاً :

ـ مع نظام أمنى إلكترونى شديد التعقيد ، كالذى يستخدمه (إيفانوفيتش) ، وفى وجود (ميرا) الفاتنة الباردة ، بخبرتها الضخمة فى التعامل مع الإلكترونيات والكمبيوتر ، مع وضع فى الاعتبار

أن ذلك النظام مغلق تمامًا ، وليس له امتدادات خارجية ، أعتقد أن الجواب المنطقى هو مستحيل ! لاختراق نظام كهذا مستحيل تمامًا ، بكل المقاييس .

انعقد حاجبا (علاء) فى توتر ، وغمغمت (ريهام) :

- يا إلهى !

أما (أدهم) ، فسأله فى هدوء :

- ولكن ماذا ؟!

ابتسم (شريف) لذكاء أستاذه ، وهو يجيب :

- ولكن (إيفانوفيتش) نفسه ساعدنا على هذا ، دون أن يدرى ، عندما سعى لاقتحام شبكة (الإنترنت) ، الخاصة بجهاز المخابرات المصرى .

بدا الاهتمام على (أدهم) ، وهو يسأله :

- وكيف ؟!

أشار (شريف) بيده ، قائلاً :

- عندما شاركت فى تصميم شبكتنا السرية الخاصة ، أضفت إليها نوعًا خاصًا من البرامج الصغيرة ، من صنعى أنا ، هو أشبه بفيروسات الكمبيوتر الحديثة جدًا ، ولكن له مهمة خاصة ، نُطلق عليها فى عالمنا ، اسم (حصان طروادة) أو (Trogan) وكل مهمته - كما يشير اسمه - هو منحنا وسيلة للتسلل إلى جهاز المقتحم ، الذى ينتقل حصاننا إليه ، دون أن يدرى ، وهو يتوغل فى موقعنا .

قالت (ريهام) فى دهشة :

- ولكننى أعلم أن برامج الحماية من الفيروسات الكمبيوترية ، يمكنها كشف أحصنة (طروادة) هذه بسهولة ، وبخاصة البرامج الحديثة منها .

ابتسم ، قائلاً :

- هذا لا ينطبق على حصانى ؛ لأنه من طراز خاص جدًا ، فهو يتسلل إلى كمبيوتر الخصم ، على هيئة برامج عادية بالغة الصغر ، وغير كافية لاستفزاز برامج كشف الفيروسات ، ثم يعيد تكوين نفسه فى وقت استدعائه فقط ، وعندئذ أصبح وكأننى داخل كمبيوتر الخصم ، بل ويمكننى السيطرة عليه أيضًا .. ثم إنه برنامج لم يتم استخدامه من قبل قط ، وهذا يعنى أن أجهزة الحماية من الفيروسات ستعجز عن التعامل معه وإبطال مفعوله .

قالت (ريهام) :

- ولكنها ستنذر بوجوده ، ويمكن للمستخدم محوه فورًا .

ضحك ، قائلاً :

- ربما يبدو هذا صحيحًا ومنطقيًا ، فى الظروف

العادية ، ولكن حصانى متمرّد للغاية ، لذا فأول ما يفعله ، هو مهاجمة برامج الحماية من الفيروسات ، وتدميرها ، وهكذا يكون على الخصم أن يتحرك بأقصى سرعته ، لكشف موقع حصانى ، وتدميره أو محوه .

سأله (أدهم) فى اهتمام :

- وكم يحتاج خبير محنك مثل (ميرا) ، لكشف حصانك ومحوه ، واستعادة السيطرة على الكمبيوتر ، بعد أن توقف عمل الدوائر الأمنية الإلكترونية بالكامل ؟!

انعقد حاجبا (شريف) بضع لحظات ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يجيب :

- من دقيقتين إلى ثلاث دقائق ، لو أحسنت إخفاءه فى موقع غير متوقَّع على الإطلاق .

بدت علامات التفكير على وجه (أدهم) ، قبل أن يقول فى صرامة :

- هذا يعنى أنه لابد أن نضع خطة متكاملة ، لاقتحام قصر (إيفانوفيتش) ، والسيطرة عليه تمامًا ، خلال دقيقتين فحسب .

تبادل (علاء) و (ريهام) نظرة متوترة صارمة ، قبل أن يقول الأول :

- مع كل احترامى لقدراتك وخبراتك يا سيِّدى ، إلا أن هذا يبدو لى مستحيلاً ، بكل المقاييس .

رفع (أدهم) سبَّابته أمام وجهه ، قائلاً :

- ليس إذا ما أحسنا استخدام كل ثانية وكل خبرة أو مقدرة لدينا .. بهذا يمكننا أن نجعل المستحيل ممكنًا .

هزَّ (علاء) رأسه ، قائلاً :

- ما زلت أجهل كيف يمكن لفردين مثلى أنا و (ريهام) ، أن يواجها كل جيش (إيفانوفيتش) وقدراته .

رفع (أدهم) سبَّابته ووسطاه وبنصره ، قائلاً :

- ثلاثة أفراد أيها النقيب .

اتسعت عينا (ريهام) فى ارتياع ، عندما فهمت ما يعنيه ، وهتفت :

- رباه ! ولكن هذا مستحيل يا سيِّدى .. كلنا نعلم أن ظروفك الصـ ...

قاطعها (أدهم) بصرامة شديدة :

- هل ستوجهين لى النصائح أيتها الملازم ؟!

امتقع وجهها ، وهى تتراجع ، متمتمة :

- كلاَّ يا سيِّدى .

كانت تشعر كزميلها ، بقلق شديد لما يمكن أن يفعله به هذا ، إلا أنها مثلهما ، لم تكن تملك مناقشة أوامره ، وهو يشرح لكل منهم دوره فى الخطة ..

الخطة التى يمكنها أن تجعل المستحيل ممكنًا ..

أو مميتًا ..

لا أحد يدرى ..

* * *

« يبدو أننا قد انتصرنا ، فى المعركة الإيطالية أيضًا .. »

نطقت (ميرا) العبارة فى ظفر واضح ، وهى تشير إلى شاشة الكمبيوتر ، قبل أن تلقى شعرها الذهبى خلف كتفها ، متابعة :

ـ دونا (كارولينا) ألغت أوامر تجميع رجالها .. من الواضح أن توقعاتك كلها كانت صحيحة يا زعيم .. إنهم لن يجازفوا بتوجيه ضربة انتقامية عاجلة ، سيعقدون عشرات الاجتماعات أولاً ، ويناقشون ألف خطوة ، وقبل أن يتخذوا قرارهم ، نكون نحن قد ضربنا ضربتنا التالية .

مطّ شفتيه ، قائلاً :

ـ لو أن الرجال أحسنوا القيام بالضربة الأولى فى (نيويورك) ، لما كانت هناك حاجة لضربة تالية .

هزّت كتفيها ، وهى تقول فى حنق :

ـ الرجال دفعوا حياتهم ثمنًا للضربة ، وكان من الممكن أن تلقى دونا (كارولينا) حتفها بالفعل ، لولا حسن حظها .

لوّح بكفه ، قائلاً فى شراسة :

ـ لست أومن بالحظ .. هناك عمل جيّد ، وعمل ..

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يحدّق فى إحدى شاشات الرصد الخارجية ، فمالت (ميرا) برأسها نحوه ، متسائلة :

ـ ماذا هناك ؟!

بدا شديد العصبية ، وهو يشير إلى الشاشة ، قائلاً :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

تركت موقعها ، لتلقى نظرة على الشاشة ، وانعقد حاجباها بدورها ، وهى تتابع شخصاً بالغ الأناقة ، فى معطف من الفراء الثمين ، يسير على قدميه فى هدوء شديد ، فوق الجليد الذى يكسو كل شىء ، وهو يتجه بخطواته الرصينة نحو بوابة القصر الرئيسية ، ورجال طاقم الحراسة يتحفزون لاستقباله ..

وبكل دهشتها ، ودون أن تفقد لهجتها الباردة ، تساءلت (ميرا) :

ـ من هو ؟! ومن أين أتى ؟!

ضغط بعض الأزرار أمامه ، دون أن يجيب ، فاقتربت الصورة أكثر ، وبدت الأصوات أكثر

وضوحاً ، وأحد رجال الحراسة يسأل القادم فى صرامة :

ـ قف .. من أنت ؟! وماذا تريد ؟!

لم يكن وجه القادم واضحاً ، وهو يجيب بالروسية ، وبلهجة أبناء العاصمة :

ـ أريد مقابلة (إيفانوفيتش) .

انعقد حاجبا الزعيم الروسى ، وهو يحاول تحديد ملامح القادم ، وشاشة الراصد تنقل صوت رجل الحراسة ، وهو يقول مستنكراً ، فى غلظة وخشونة :

ـ مقابلة من ؟! من تظن نفسك يا هذا ؟! هل تعتقد أن السيد (إيفانوفيتش) سيقابلك ، لمجرد أنك أتيت إلى هنا ، سيراً على قدميك ؟! يا للسخافة .. الزعيم لا يلتقى بأحد ، إلا بناءً على موعد سابق .

أجابه القادم ، فى لهجة ساخرة واثقة :



انعقد حاجبا الزعيم الروسى ، وهو يحاول تحديد ملامح القادم ، وشاشة الراصد تنقل صوت رجل الحراسة ..

ـ أخبره اسمى فحسب ، وسترى كم سيتلهف على مقابلتى .

مطّ الحارس شفتيه فى ازدراء ، وهو يقول :

ـ يا للمغرور ! ومن أنت أيها المتحذلق ؟!

رفع القادم وجهه ، وتطلّع إلى آلة التصوير مباشرة ، مجيبا بنفس اللهجة الساخرة الواثقة :

ـ (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

انتفض (إيفانوفيتش) على مقعده فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فى ذهول حقيقى ، عندما التقطت عيناه وأذناه الوجه والاسم فى آن واحد ، ووجد نفسه يهتف :

ـ مستحيل !

سألته (ميرا) ، فى ذهول مماثل :

ـ أهذا هو (أدهم صبرى) الذى ...

استوقفها بإشارة صارمة عصبية من يده ، وعيناه ما زالتا تحدقان فى وجه (أدهم) ، الذى سأله الحارس فى حنق :

- ومن (أدهم صبرى) هذا أيها الـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، انبعث صوت (إيفانوفيتش) الصارم ، عبر جهاز الاتصال المحدود ، وهو يقول :

- اسمح للسيّد (أدهم) بالدخول .

ثم استدرك فى سرعة :

- بعد أن يخضع للفحص والتفتيش ، من الفئة ألف - واحد .

ابتسم (أدهم) بسخرية أكبر ، وهو يلتقط مسدسه من حزامه ، ويناوله إلى رجل الحراسة ، قائلاً :

- لا بأس ، وإن كنت لا أحمل سوى مسدس ، ودون حتى خزانة رصاصات إضافية .

أنهى (إيفانوفيتش) الاتصال المباشر بحركة حادة ، ثم تراجع فى مقعده ، وهو يتطلّع إلى إجراءات فحص تفتيش (أدهم) على الشاشة ، مكرّراً :

- مستحيل !

سألته (ميرا) ، فى حيرة تموج بالشك :

- ولكن لماذا يجازف بالقدوم إلى هنا ؟! ألم يخش أن تأمرهم بقتله مباشرة ، دون أن تسمح له بالدخول .

صمت لحظة ، وهو يعقد حاجبيه فى شدة ، قبل أن يقول :

- لقد خطر هذا ببالى لحظة .

ثم ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف :

- ولكن الفضول كان سيقتلنى أنا ، لو لم أعرف لماذا جاء .

وصمت لحظة ، ثم استطرد فى عصبية :

- وهو يدرك هذا حتمًا .

قالت (ميرا) فى حذر :

- إنه غير مسلح على أية حال .

هز رأسه فى قوة ، قائلاً :

- لا يمكنك أن تأمنى (أدهم) ، حتى ولو كان مقيدًا بالسلاسل ، فى قاع المحيط .

ثم التفت إليها ، مستطردًا فى صرامة آمرة :

- أريد خمسة من الحراس الخارقين هنا ، يصوبون إليه أسلحتهم ، طوال وجوده هنا ، وأبلغى الكل أن يمنعوا خروج أى مخلوق من هذه الحجرة ، إلا بأوامر مباشرة منى ، مهما كانت الأسباب .

غمغمت :

- فليكن .

راحت تلقى أوامره إلى الكل ، عبر شبكة الاتصالات الداخلية الخاصة ، فى حين واصل هو مراقبته لـ (أدهم) ، وهو يغمغم فى عصبية :

- لماذا يا (أدهم) ؟! لماذا ؟!

كان الفضول يكاد يقتله بالفعل ، لمعرفة سر قدوم (أدهم) إلى قصره مباشرة ، بوجه عار كهذا ، وفى ظروف مناخية ، يندر أن يخرج فيها روسى متمرس من بيته ، فماذا عن رجل ينتمى إلى مجتمع معتدل المناخ ، لم ير جليدًا يكسو شوارعه ، فى حياته كلها ؟!

ولم تمض دقائق ، حتى كان رجال الحرس الخارق الخمسة داخل حجرة مكتبه الفاخرة الواسعة ، وخمسة من حرسه العاديين الأشداء يقفون ببابها ، و (ميرا) عند جهاز الكمبيوتر ،

تتطلع إلى الباب فى فضول ، لرؤية الرجل ، الذى يتحدث زعيمها عنه دومًا ، كما لو كان أسطورة حية ، فى عالم المخابرات .

ويمكن القول إن أنفاس الكل قد احتبست تمامًا ، بمن فيهم (إيفانوفيتش) نفسه ، عندما تسلل إلى مسامعهم وقع أقدام طاقم الحراسة ، الذى يصطحب (أدهم) عبر ممرات القصر وقاعاته الفاخرة ، إلى حجرة المكتب ..

ثم ظهر (أدهم) عند الباب ..

وانتفض قلب (ميرا) بين ضلوعها فى عنف ، وهى تحدق فى وجهه الوسيم الشاحب ، وابتسامته الواثقة الساخرة ، وقوامه الممشوق ، الذى يميل إلى النحول ، وهو يقول بلغة روسية سليمة للغاية ، حتى لتكاد تقسم إنه مواطن روسى قحّ :

ـ آه .. أخيرًا التقينا يا (إيفان) .. سنوات طويلة ، ونحن نتقاتل من وراء الأسوار .

حاول (إيفانوفيتش) أن يجيبه بعبارة ساخرة أخرى ، تظهر لرجاله ثقته واعتداده بنفسه ، إلا أنه وجد نفسه يقول بشىء من الخشونة :

ـ ولكنك لم تنتصر علىّ أبدًا يا (أدهم) .

حافظ (أدهم) على ابتسامته الواثقة ، وهو ينتزع قفازيه ، ويدسهما فى جيب معطفه الفاخر الأنيق ، قائلاً :

ـ لم تحدث بيننا مواجهة مباشرة أبدًا يا (إيفان) ، وإلا لما كنت تجلس هنا الآن .

قال (إيفانوفيتش) فى عصبية :

ـ وربما لم تكن أنت لتقف هنا أبدًا .

هزّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً فى سخرية ، وهو يخلع معطفه :

- بالتأكيد .. فأى أحمق سواك كان سينفق المليارات ، لتشييد قلعة كهذه ، لو أننى أنهيت أمرك منذ زمن طويل .

ثم استدار فى هدوء إلى رجال الحرس الخارق ، الذين يصوبون إليه أسلحتهم ، قائلاً :

- من منكم سيحمل معطفى ؟!

ارتفع حاجبا (ميرا) فى دهشة ، تمتزج بالكثير من الإعجاب ، على الرغم منها ، فى حين احتقن وجه (إيفانوفيتش) فى شدة ، وهو يقول بغضب هادر :

- ما الذى تتصوَّره يمنعنى ، من أن آمر أحد هؤلاء بنسف رأسك فوراً ؟!

ألقى (أدهم) معطفه على أقرب مقعد ، ثم جلس فى هدوء على مقعد آخر ، قائلاً فى سخرية :

- وتحرم نفسك فرصة معرفة سبب قدومى ؟! هذا لا يتفق مع شخصيتك أبداً يا (إيفان) .

انعقد حاجبا (إيفانوفيتش) بضع لحظات ، فى غضب هادر متفجِّر ، حتى خُيِّل لـ (ميرا) أنه سيستلّ مسدسه بغتة ، ويُطلق النار على (أدهم) مباشرة ، إلا أنه لم يلبث أن مال إلى الأمام ، متسائلاً بكل عصبية الدنيا :

- لماذا أتيت بالضبط يا (أدهم) ؟!

ألقى (أدهم) نظرة على ساعته ، قائلاً :

- عجباً ! هل مضى الوقت بسرعة ، بحيث لم أنتبه إليه ، أم أنك تعانى لهفة وفضولاً شديدين يا (إيفان) ؟!

صاح به الروسى فى ثورة :

- لماذا أتيت ؟!

تطلّع إليه (أدهم) بضع لحظات ، فى هدوء مستفز ، قبل أن يميل إلى الأمام ، ويسأله فى شىء من الصرامة :

- أين رجالنا يا (إيفان) ؟!

تألقت عينا (إيفان) ، وهو يرتد :

- رجالكم ؟!

خُيِّل إليه أنه قد استوعب أخيرًا سر قدوم (أدهم) إليه ، وهو يقول مستعيدًا بعض ثقته بنفسه :

- لو أنكم أحسنتم اختيارهم ، لما كنت هنا من أجلهم الآن .

قال (أدهم) :

- حقًا ؟!

بدت كلمته ساخرة أكثر مما ينبغى ، حتى إن (ميرا) قد تحركت بأسلوب غريزى ، وأمسكت مقبض مسدسها ، على نحو جعل رجال الحرس الخارق الخمسة يتحفزون ، بمدافعهم الآلية ، المصوبة إلى (أدهم) ، فقال (إيفانوفيتش) فى صرامة :

- لقد دفعوا ثمن محاولتهم خداع (المافيا) الروسية .

سأله (أدهم) بصرامة أكبر :

- وما الذى تقصده بدفع الثمن ؟!

أشار (إيفان) بيده ، مجيبًا بكل الصرامة والغضب :

- هل تتصور أنه من السهل خداع (إيفانوفيتش) ؟!

مال (أدهم) على مقعده أكثر ، وهو يقول :

- هل تتصور أنت أن خداعك أمر مستحيل ؟!

مرة أخرى ، بدت عبارته (ساخرة) ، بأكثر مما هى صارمة ، فانعقد حاجبا الأب الروحى الروسى ، وتبادل نظرة عصبية مع مساعدته الفاتنة ، التى قالت فى برود :

- من الواضح أنه يعرف كل التفاصيل .

استدار إليها (أدهم) بحركة حادة ، متسائلاً :

ـ أية تفاصيل ؟!

قالت بنفس البرود :

ـ تفاصيل ما حدث هنا .

تراجع (أدهم) فى مقعده ، قائلاً :

ـ وكيف يمكننى معرفتها أيتها العبقرية ؟!

التقى حاجباها فى توتر ، وتبادلت نظرة أخرى مع (إيفانوفيتش) ، الذى عاد حاجباه ينعقدان فى توتر شديد ، وهو يعيد دراسة الأمر كله فى ذهنه للمرة الخامسة ، قبل أن يسأل فى صرامة :

ـ كيف أتيت إلى هنا يا (أدهم) ؟!

ابتسم (أدهم) فى سخرية ، مجيبًا :

ـ سيرًا على الأقدام .

لوّح (إيفانوفيتش) بذراعه فى حدة ، قائلاً :

ـ هذا مستحيل تمامًا ، فى طقس كهذا .. (موسكو) تبعد عنا خمسين كيلومترًا على الأقل ، ثم إن الوصول إلى (موسكو) نفسها ليس بالأمر السهل .. هل قطعت كل هذه المسافة ، لتطالب برجالك فحسب ؟!

هزّ (أدهم) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى صرامة مخيفة :

ـ كلاً بالطبع يا (إيفان) .. لقد أتيت إلى هنا لسبب آخر تمامًا .

ثم عاد إلى ظهر مقعده ، وهو يشير بسبّابته ووسطاه ، مضيفًا :

ـ بل هما سببان فى الواقع ، ولكننى لم أعلم بالأخير ، إلا قبيل قدومى إليك بلحظات ، وأظنه لم يبلغك بعد .

سأله (إيفانوفيتش) ، فى حذر متوتر للغاية :

ـ وما هو ؟!

رفع (أدهم) أحد حاجبيه وخفضه ، وهو يقول فى تشفٍ ساخر :

ـ صفقة الأسلحة فشلت .

اتسعت عينا (ميرا) فى ارتياع ، واستدارت فى سرعة إلى جهاز الكمبيوتر ، فى محاولة للبحث عن أية معلومات ، تؤكد ما قاله (أدهم) ، الذى تابع بنفس اللهجة ، وهو يتطلع إلى وجه (إيفانوفيتش) مباشرة :

ـ ليس هذا فحسب ، ولكننا قتلنا (هانز) ، وألقينا القبض على (شوكت) و(نيكولاس) ، وكل معاونيهم ، وأحبطنا خطتهم لاغتيال رئيسنا أيضًا .

احتقن وجه (إيفانوفيتش) بضع ثوان ، فى

غضب هادر ، إلا أنه لم يلبث أن سيطر عليه فى سرعة ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

ـ وما شأنى بهذا ؟! لقد تقاضيت ثمن الصفقة ، وهذا كل ما يعنينى فى الأمر .. (هانز) و (شوكت) و (نيكولاس) لم يعملوا أبدًا لحسابى .. فليذهب كل هذا إلى الجحيم .. إننى لا أهتم ، لو لقى نصف العالم مصرعه يا رجل ، مادمت أنا سأظلّ على قيد الحياة .

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول بصرامة غاضبة هادرة :

ـ أهذا ينطبق أيضًا على (بترو) و (نادية) ، ورجال مخابراتنا الثلاثة ، الذين لقوا مصرعهم ، وعلى (جيهان) و (دونا) ، اللتين تصارعان الموت الآن ؟!

رمقه (إيفانوفيتش) بنظرة نارية ، وهو يشير إلى رجاله بالتأهب ، قائلاً :

ـ إذن فهذا هو السبب الرئيسى ، الذى أتى بك إلى هنا .

بدا (أدهم) أكثر غضبًا وصرامة ، وهو يقول :

ـ لا بد أن تدفع الثمن يا (إيفان) .

هبَّ (إيفان) واقفًا ، وهو يصرخ فى غضب هادر :

ـ قول أحمق سخيف ، فى موقفك هذا يا (أدهم) .

نهض (أدهم) بدوره ، وهو يقول بنفس الصرامة الغاضبة :

ـ هل تصوَّرت أنك ستنجو بفعلتك القذرة الحقيرة هذه إلى الأبد ؟!

لوَّح (إيفانوفيتش) بذراعه ، صائحًا بكل الثورة :

ـ يا لك من متحذلق مغرور يا (أدهم) !! هل

تدرك أنه ، بإشارة واحدة من سبابتى ، سيمحوك رجالى من الوجود ، وأن ...

قبل أن يتمّ عبارته ، صرخت (ميرا) فجأة :

يا للشيطان ! ماذا يحدث ؟!

استدار إليها (إيفانوفيتش) ، بحركة هادرة ، ووجدها تشير إلى شاشة الكمبيوتر ، صارخة :

ـ لقد اخترق أحدهم نظامنا .. إنه يسيطر على كل شىء .. كل شىء .

ومع صرختها ، انطفأت شاشات الرصد ، واحدة بعد الأخرى ، فالتفت إليها (إيفانوفيتش) ، بكل غضب وثورة الدنيا ..

ثم قفزت الحقيقة كلها إلى ذهنه دفعة واحدة .

إذن فالفريق المصرى لم يلق مصرعه بعد ..

و (أدهم) جاء إلى هنا ، كجزء من خطة متقنة ، لاختراق كيانه كله ..

خطة مصرية مائة فى المائة ..

وبكل غضبه وثورته ، استدار (إيفانوفيتش) إلى رجال حرسه الخارق ، الذين يصوبون مدافعهم القوية إلى رأس (أدهم) مباشرة ، بأصابع متحفزة على الأزندة ، وصرخ بصوت هادر ثائر :

ـ اقتلوه .. اقتلوه بلا رحمة .

وبات من الواضح أن القدر قد استعد أيضًا ، لإغلاق ملف (أدهم صبرى) هناك ، فى قصر (إيفانوفيتش) ..

وفى قلب الجليد ..

جليد (موسكو) ..

الدموى ..

* * *

٨ ـ الأسطورة ..

لم يكد رنين الهاتف ينطلق ، فى حجرة مكتب (منى) الصغيرة ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، حتى وثبت يدها تختطف سماعته فى لهفة ، وتضعها على أذنها ، قائلة :

ـ (منى توفيق) .

أتاها صوت خشن جاف ، يقول فى برود ، وبلغة إنجليزية ، ذات لكنة روسية غليظة واضحة :

ـ سيدة (منى) .. أنا (كوربوف) .. (سيرجى كوربوف)(*) .

هتفت :

ـ أخيرًا .

(*) راجع قصة (سم الكوبرا) .. المغامرة رقم (٥١) .

أجابها فى سرعة :

دعينى أعتذر أولاً عن التأخير ، ولكننى تلقيت رسالتك بعد عودتى من مهمة خاصة ، و ...

قاطعته فى لهفة متوترة :

ـ أين أنت الآن يا (سيرجى) ؟!

أجاب فى حزم :

ـ إننى أتحدث إليك من الهليوكوبتر .. أنا فى طريقى إلى هناك بالفعل .

ثم أضاف بشىء من الدهشة :

ـ (أدهم) هذا مجنون بالفعل ، كعهدى به دومًا .

قالت ، وكل جسدها يرتجف انفعالاً :

ـ الأمر خطير يا (سيرجى) .. خطير للغاية .

أجابها فى صرامة :

ـ أنا أدرك هذا جيدًا يا سيدتى .

وصمت لحظة ، ثم استطرد ، وقد حملت لهجته قدرًا مدهشًا من الاحترام والتقدير والتوقير :

ـ (أدهم) يفعل الآن ما تمنيت أن أفعله طيلة عمرى ، ولكننى لم أجرؤ على القيام به أبدًا .. إننى أشعر بالدهشة ، لأننا كنا عدوين يومًا ، أو أننا ..

لم يكن بمقدور (منى) أن تستمع إلى قصته هذه ، مع حالة الانفعال الشديد ، التى تمر بها ، لذا فقد قاطعته مرة أخرى ، سائلة :

ـ وماذا عن ....

قاطعها هو ، قبل أن تتم سؤالها :

ـ إنه بصحبتى .. هو أيضًا يشعر بقلق لا محدود ،

ولقد قطع رحلة طويلة وشاقة للغاية ، ولكن كل ما يتمناه هو أن يصل فى اللحظة المناسبة ، قبل فوات الأوان .

هوى قلبها بين قدميها ، مع عبارته الأخيرة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، بكل هلع وارتياع الدنيا ، وهى تكرر العبارة فى أعماقها ..

نعم .. أخطر ما فى الأمر كله ، أن يصل الاثنان إلى قصر (إيفانوفيتش) ، فى اللحظة المناسبة تمامًا ..

وقبل فوات الأوان ..

* * *

كل شىء حدث بسرعة مذهلة ، عجز عقل (إيفانوفيتش) ، عن تصورها واستيعابها ، وإدراكها ..

فالأمر لم يقتصر على إطفاء شاشات المراقبة ، وقطع الاتصالات بينه وبين رجاله فحسب ..

لقد امتلك (شريف) ناصية الأمر كله ، من خلال اتصال فائق ، وعبر الأقمار الصناعية القوية ، وبوساطة (حصان طروادة) ، الذى غرسه فى أعمق أعماق نظام الكمبيوتر ، فى قصر (إيفانوفيتش) ، مع براعة مذهلة ، لا ينافسه فيها إلا أقوى وأخطر خبراء الكمبيوتر والاتصالات ، فى العالم كله ..

وفور اختراقه النظام ، انطلقت أصابعه تفسد كل نظم الأمن فى قصر (إيفانوفيتش) المنيع ..

كل النظم ..

بلا استثناء ..

الأبواب الإلكترونية فقدت طاقتها ..

شاشات الرصد كلها توقفت ..

التيار لم يعد يسرى ، فى الأسوار المكهربة ..

صواريخ الدفاع الجوى فقدت توجيهها الآلى ..

نظم الفحص الحرارية أصيبت بالشلل ..

الكلاب المتوحشة أغلقتْ عليها أقفاصها ، ذات الأرتجة الإلكترونية ..

وأخيرًا ، وهو الأكثر أهميـة وخطـورة ، أن أنظمة التحكم فى درجات الحرارة ، لأزياء الحرس الخارق الخاصة ، قد أصيبت بالخلل ..

فارتفعت حرارة الأزياء إلى حد رهيب ..

حد لايمكن أن يحتمله البشر ..

أى بشر ..

وفى اللحظة التى صرخ فيها (إيفانوفيتش) ، يطالب حرسه الخارق بإطلاق النار على (أدهم) ،

فوجئ برجال الحرس الخارق يطلقون صرخات ألم وذعر ، ويفلتون أسلحتهم ، وهم يجاهدون فى استماتة ، لخلع ثيابهم الملتهبة ..

وقبل أن يفهم ما حدث ، كان (أدهم) يختطف معطفه ، ويندفع نحوه بأقصى سرعته وقوته .. وغضبه ..

وعلى الرغم من وحشية (إيفانوفيتش) ، وشراسته المعهودتين ..

وعلى الرغم من شهرته ، وصرامته ، وخبراته السابقة ، كرجل مخابرات قديم ..

على الرغم من كل هذا ، اتسعت عينا الروسى فى ارتياع ، وهو يواجه (أدهم صبرى) وتراجع بحركة مذعورة ، وهو يطلق صرخة ذعر ، لم يسمعها أحد منه قط ، أو حتى تصوّر أن يسمعها ..

وبكل سرعتها وتوترها ، انتزعت (ميرا) مسدسها وصوّبته إلى (أدهم) ، صارخة :

- لا .. لن تهزمنا هنا .

انطلقت رصاصتها نحو (أدهم) ، الذى رفع معطفه بحركة سريعة ، ليصدّ الرصاصة ، التى ارتطمت بالمعطف المضاد للرصاصات ، وانتزعته من يده فى عنف ، وهو يواصل انطلاقه نحو (إيفانوفيتش) ، الذى تراجع حتى التصق بمكتبه ، وهو يصرخ :

- لا .. ابتعد عنى .. لا ..

وهنا ، انقضّت (ميرا) على (أدهم) ..

انقضت كلبؤة مفترسة ، وهى تطلق صرخة غضب قوية ، وأنشبت أظفارها فى جسده ، صارخة :

- مستحيل ! مستحيل !

قبض (أدهم) على عنقها بأصابع من فولاذ ، وهو يهتف :

- إننى أكره قتال النساء .

ثم انتزعها عنه ، وحمل جسدها كله ، ليلقيه خلفه فى عنف ، مستطردًا :

- إلا للضرورة القصوى ..

سقطت مرتطمة بالأرض فى عنف ، ولكنها وثبت مرة أخرى ، فى مرونة مدهشة ، وتعلقت فى عنق (أدهم) ، صارخة :

- إلىّ يا حراس .. النجدة .. النجدة ..

وقبل حتى أن يكتمل هتافها ، اقتحم الحراس الخمسة حجرة مكتب (إيفانوفيتش) وارتفعت فوهات مدافعهم القوية فى شراسة ..



قبض (أدهم) على عنقها بأصابع من فولاذ ، وهو يهتف :
- إنني أكره قتال النساء ..

وثب (أدهم) إلى الأمام ، و(ميرا) مازالت معلّقة بعنقه ، وأدار يده خلف ظهره ، وانتزع عنه هذه الأخيرة بقوة ، وهو يهتف :

- يا للعناد !

أطلق هتافه ، وهو يثب خلف المكتب الصغير ، ورصاصات مدافع الحراس تنطلق خلفه كالمطر ، وتنسف الكمبيوتر ، وأجهزة الاتصال ، وكل الأدوات الأخرى ، وتنغرس فى جسم المكتب نفسه ، و(ميرا) تحاول الانقضاض عليه مرة أخرى ، صارخة بنفس الكلمة الغاضبة الثائرة :

- مستحيل ! .

هوى (أدهم) على أنفها بلطمة ، كالقنبلة ، هاتفًا :

- فليكن .. أنت أردت هذا .

ألقتها اللطمة أرضًا فى عنف ، والحراس

يواصلون إطلاق الرصاصات ، التى لايحميه منها إلا تلك المكتب الصغير ، الذى يوشك على الانهيار ، تحت وطأة النيران العنيفة ..

وأمامه مباشرة ، وجد (أدهم) مسدس (ميرا) ، فاختطفه فى سرعة ، وهو يقول لنفسه :

- القتل أمر بغيض يا (أدهم) .

ثم برز من خلف المكتب ، مستطردًا فى صرامة :

- إلا للضرورة القصوى .

وبمهارة مدهشة ، راحت رصاصاته تحصد رجال (المافيا) الروسية بلا هوادة ..

واتسعت عينا (إيفانوفيتش) فى ارتياع ، وعجز عقله عن استيعاب مايحدث أمامه ، فردد نفس كلمات (ميرا) الفاقدة الوعى ، وهو يلتصق بمكتبه أكثر وأكثر وأكثر :

- لا .. مستحيل أن يكون هذا حقيقة !! مستحيل !

ثم استردَّ توازنه دفعة واحدة ، واستدار إلى مكتبته ، وجذب أحد كتبها فى قوة ، مغمغمًا بمنتهى العصبية :

- ولكن أفضل مايفعله المرء ، عندما تتعقد الأمور ، هو ...

انزاح جزء من المكتبة ، كاشفًا ممرًا سريًا طويلاً ، اندفع (إيفانوفيتش) إليه ، وهو يهتف مستطردًا :

- الفرار .

لمح (أدهم) مدخل الممر السرى ، وهو يُغلق خلف (إيفانوفيتش) ، وهو يطلق آخر رصاصات مسدس (ميرا) ، ليطيح بآخر رجال الحراسة ، فاندفع نحو المدخل ، محاولاً منع انغلاقه التام ..

ولكن المدخل أغلق بقوة ، قبل أن يبلغه هو ..

فى نفس اللحظة ، التى حدث فيها هذا ، كان (علاء) و (ريهام) يقتحمان الأسوار الخلفية لقصر (إيفانوفيتش) ، بانفجار نسف جانبًا كبيرًا من الأسوار ، ثم يندفعان إلى المكان ، وهما يرتديان معطفين مضادين للرصاصات ، ويحملان مدفعين آليين ، من أحدث وأقوى ما أنتجته القرائح المدمرة ..

أما (شريف) ، فقد انتقل إلى المرحلة الثانية ، من عملية السيطرة على نظم الأمن والدفاع .. مرحلة التدمير الذاتى ..

وفى عشرات الأماكن ، فى قصر (إيفانوفيتش) وحديقته الكبيرة ، راحت مخازن الذخائر تنفجر فى عنف ، وتنسف مخزون الأسلحة ، مطيحة بالعشرات من رجال (المافيا) الروسية ، الذين أصابهم مزيج من الذعر والارتباك ، مع تلك

التطورات المباغتة ، التى لم تخطر ببالهم قط ، فى أية لحظة من لحظات حياتهم ..

ثم بدأت وسائل الدفاع تنقلب عليهم ..

وبمنتهى العنف ..

منصة الصواريخ المضادة للطائرات برزت من موقعها ، ومالت إلى أسفل ، ثم أطلقت أحد صواريخها ، نحو البوابة الرئيسية للقصر مباشرة ..

وكان الانفجار رهيبًا ..

عنيفًا

مدمرًا ..

انفجار أطاح بالبوابة ، وأطقم الحراسة ، وكل وسائل الأمن التكنولوجية بلا هوادة ..

ثم مالت المنصة إلى أعلى ، بزاوية شبه قائمة ، وأطلقت صاروخًا ثانيًا ، قبل أن تنتصب بزاوية

قائمة تمامًا ، وتطلق صاروخًا ثالثًا ، إلى السماء مباشرة ..

وبينما يشق (علاء) و (ريهام) طريقهما فى الساحة الخلفية ، ويتبادلان النيران مع مجموعة من أشرس رجال (المافيا) الروسية ، الذين تبقوا فى المكان ، وفى نفس اللحظة ، التى اختطف فيها (أدهم) مسدسًا آخر من أحد رجال الحراسة القتلى ، وراح يطلق رصاصاته على مدخل الممر السرى ، فى محاولة للحاق بالأب الروحى للروسى ، كان طاقم التحكم الإلكترونى ، فى الطابق العلوى من القصر ، يسعى لاستعادة السيطرة على نظم الأمن فى المكان ، بأية وسيلة ممكنة .. وبأى ثمن ..

وبكل التوتر ، هتف قائدهم :

ـ حاولوا فصل النظام الأساسى عن العمل ، وتشغيل نظم الأمن الاحتياطية فورًا .

هتف أحد رجاله :

ـ أظننى نجحت في التوصُّل إلى (حصان طروادة) ، الذى تسلَّل إلى نظامنا .. ويمكننى إبطال مفعوله خلال عشرين ثانية فحسب .

صاح به قائده فى حدة :

ـ وماذا تنتظر ؟!

كانوا فريقًا من أفضل وأبرع خبراء الكمبيوتر ، فى (روسيا) كلها ، ولقد نجح (إيفانوفيتش) فى جذبهم وتجنيدهم للعمل لحسابه ، اعتمادًا على الأزمة الاقتصادية العنيفة ، التى كان هو أحد أسباب حدوثها ..

ولقد تحرَّكوا بسرعة وبراعة بحق ..

وكشفوا ما فعله (شريف) ..

ثم توصَّلوا بالفعل إلى حصانه ..

وبسرعة البرق ، راحت أصابعهم تجرى على أزرار الكمبيوتر ، لاستعادة السيطرة على نظامهم ..

وفى ظفر ، هتف أحدهم :

ـ لقد فعلتها .. محوت (حصان طروادة)..

صاح به قائده :

ـ عظيم .. انتقلوا فورًا إلى نظم الأمن الاحتياطية .. أعيدوا إلينا نظامنا وسيطرتنا ، قبل أن ...

قاطعه دوى انفجار عنيف ، فى حديقة القصر الضخمة ، نسف شعار (إيفانوفيتش) الذهبى ، وحوض السباحة المصنوع على شكل قلب كبير ، تتوسطه زهرة ثلاثية الأوراق ، وأطاح بعشرات آخرين من رجال (المافيا) الروسية ..

وهنا ..

هنا فقط ، تذكر الرجال أن الأجهزة قد أطلقت صاروخًا بزاوية شبه قائمة ، ومن الطبيعى أن يسقط فى حديقة القصر ، بعد أن يبلغ أقصى ارتفاع له ..

ولكن ماذا عن الصاروخ الآخر ، الذى انطلق عموديًا ؟!

إنه سيبلغ أقصى ارتفاع له ، ثم يرتد ..

عموديًا أيضًا !

وبكل هلعهم ورعبهم ، تخلوا عن أجهزة الكمبيوتر ، وانطلقوا يعدون فى كل اتجاه ، وهم يطلقون صرخات مذعورة ..

ولكن الصاروخ الثانى عاد إلى موضعه ..

وكان الانفجار أكثر عنفًا من ذى قبل ..

وفى هذه المرة ، أطاح بقمة القصر ، وبكل ما عليه من نظم الدفاع والمراقبة ، ونسف مركز التحكم الإلكترونى بأكمله ، وأطاح بكل أجهزة الكمبيوتر والاتصالات فيه ..

وهنا انهارت كل نظم الأمن ..

الأساسية والاحتياطية ..

انهارت تمامًا ، بحيث لم يعد لهم ، أو لـ (شريف) أية سيطرة عليها ..

انهارت ليتحول حصن (إيفانوفيتش) الأسطورة ، إلى قلعة نصف متهدمة ،من قلاع العصور الوسطى .

وهنا ، كان على (شريف) أن ينتقل إلى المرحلة الثالثة ..

وبكل قوته ، ضغط دواسة الوقود ، فى سيارة مؤسسة (أميجو) ، صارخًا فى انفعال :

ـ أنا قادم يا رفاق ..

انطلقت السيارة من مكانها كالصاروخ ، متجهة نحو بوابة القصر المتهدمة ، واخترقتها فى عنف ، إلى الحديقة الهائلة ، التى يكسوها الجليد ، الذى امتزج بدماء رجال (المافيا) الروسية الغزيرة ..

وكانت مفاجأة عنيفة جديدة للرجال ، الذين واجهوا ما يفوق قدراتهم على الاحتمال ، خلال الدقائق القليلة الماضية ..

وبكل هلعهم وذعرهم ، استداروا يواجهون هذا الوحش الإلكترونى الجديد ، وأطلقوا نحوه رصاصاتهم ، فضغط (شريف) زرًا فى تابلوه السيارة ، هاتفًا :

ـ فليكن .. العين بالعين .

وفى مدفعين قويين أعلى السيارة ، انهالت الرصاصات على رجال (المافيا) الروسية كالمطر ..

كانت رصاصاتهم ترتطم بجسم السيارة المصفح ، دون أن تفعل أكثر من خدشه ، فى حين كانت رصاصات السيارة تحصدهم حصدًا ، والسيارة نفسها ترتطم ببعضهم ، وتزيحه عن الطريق فى عنف ..

وعندما لاحت السيارة ، لـ (علاء) و (ريهام) ، وهما يواصلان تقدمهما ، عند الساحة الخلفية للقصر ، هتفت الأخيرة :

ـ حمدًا لله .. ها هو ذا .

أجابها (علاء) فى حماسة ، وهو يطلق رصاصاته فى غزارة :

ـ أظننا قد فعلناها أيتها الملازم .

وحملت كلماته مزيجًا من الزهو والظفر والارتياح ، وهو يضيف :

ـ لقد انتصرنا .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها كلمته ، كان (أدهم) يلتقط قفازيه من جيب معطفه المضاد للرصاصات ، ثم يحكهما ببعضهما فى قوة ، مغمغمًا :

ـ أتمنى أن تكون (ريهام) قد أحسنت وضع تلك التركيبة الكيميائية التى ابتكرتها .

اشتعل جزء من نسيج أحد القفازين ، مع آخر حروف كلماته ، فدسهما بين كتب المكتبة ، وتراجع لمترين إلى الخلف ، و ...

وفجأة ، دوت رصاصة فى المكان ..

ومع دويها ، شعر (أدهم) بخيط من النار يخترق ظهره ، من الناحية اليمنى ، ثم ينفذ من أعلى صدره ، وصرخت آلام رهيبة فى أعماقه ..

وبسرعة مدهشة ، استدار (أدهم) إلى (ميرا) ، التى أمسكت مسدس أحد الحرس ، وبدت أشبه بوحش أشقر شرس ، وهى تصرخ :

ـ اذهب إلى الجحيم .

وقبل أن تضغط زناد مسدسها للمرة الثانية ، ارتفعت فوهة مسدسه بسرعة البرق ، وهو يهتف :

- اذهبى أنت .

انطلقت رصاصاته ، لتخترق عنقها ، وتنفذ من مؤخرته ، فاتسعت عيناها عن آخرهما ، فى ألم هائل مذعور ، وسقط المسدس من بين أصابعها ، وانطلقت من حلقها وعنقها حشرجة مخيفة ، قبل أن تسقط على وجهها جثة هامدة ..

وفى نفس لحظة سقوطها ، دوى الانفجار ..

انفجار محدود مكتوم ، نسف مدخل الممر السرى ، وفتح الطريق أمام (أدهم) تمامًا ..

كان (أدهم) يشعر بتهالك شديد ، وبصعوبة شديدة ، مع ألم رهيب ، كلما حاول أن يلتقط أنفاسه ، مما جعله واثقًا من أن رصاصة (ميرا) قد اخترقت رئته اليمنى ..

وعلى الرغم من هذا ، فهو لم يضع لحظة واحدة ..

إرادته الفولاذية ، التى اكتسبها من طول عمله وخبراته ، جعلته ينطلق عبر الممر ، بحثًا عن (إيفانوفيتش) ، وهو يتمنى ، من أعمق أعماق قلبه ، ألا يكون هذا الأخير قد وجد سبيلاً للفرار بالفعل ..

والواقع أن كل شىء ، فى هذا الممر السرى ، كان يؤمّن لـ (إيفان إيفانوفيتش) السبيل المثالى للفرار ..

فالممر يمتدّ ، أسفل حديقة القصر الضخمة ، إلى خارج أسوارها الخلفية .. وبالتحديد عند مخزن سرى ، استقرت داخله هليوكوبتر صغيرة ، بالغة الحداثة والتطوّر ، تتسع لفرد واحد ، ويمكنها الانطلاق بسرعات مذهلة ، تعجز معها أقوى طائرات الهليوكوبتر العادية عن اللحاق بها ..

وداخل الممر نفسه ، كانت هناك سيارة كهربية صغيرة ، يمكنها بلوغ المخزن السرى ، فى نهاية الممر ، خلال ثوان معدودة ..

كل هذا كان يتيح لـ (إيفانوفيتش) الفرار من المكان كله ، قبل حتى أن ينجح (أدهم) ، أو أى أحد آخر ، فى اختراق الممر السرى ..

لولا ما فعله (شريف) ..

فمع نسف نظم الأمن والتحكم ، كان من المحتم أن ينقل (إيفانوفيتش) عملية التحكم كاملة إلى النظام اليدوى ..

وهذا يحتاج إلى دقيقة كاملة ..

على الأقل ..

وبينما كان يفعل هذا ، بكل العصبية والتوتر ، سمع دوى الانفجار المكتوم من خلفه .. وأدرك أن مدخل الممر قد انتهى ..

وأن (أدهم) فى طريقه إليه ..

وبكل انفعاله ، وثب (إيفانوفيتش) داخل

السيارة الكهربية ، وهو يلتقط مسدس الطوارئ ، ويدسه فى حزامه ، هاتفًا فى غضب هادر :

ـ ظهور (أدهم صبرى) فى أى مكان ، يعنى خراب ودمار بلا حدود .. كان ينبغى أن أذكر هذا .

ثم أدار محرك السيارة ، مستطردًا فى مقت هائل :

ـ وأن أقتله فور رؤيته .

فى نفس اللحظة ، التى بدأت فيها السيارة تحركها ، ظهر (أدهم) فى الممر ، وهو يعدو بكل قوته ..

واتسعت عينا (إيفانوفيتش) ، وهو يصرخ :

ـ لا .. مستحيل !

ثم استل مسدسه ، وضغط دواسة السيارة الكهربية ، وهو يطلق النار نحو (أدهم) ، مكررًا بصرخة هادرة :

- مستحيل !

انطلقت رصاصته ، فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها السيارة ، عبر الممر السرى الطويل ..

وزاد (أدهم) من سرعته ، على نحو مذهل بحق ، وهو يتفادى رصاصات (إيفانوفيتش) ، ويلهث بمنتهى العنف ، والدماء تتناثر من بين شفتيه ..

ولأن الأمر يتجاوز بالفعل حدود قدرات البشر ، فقد بدا المشهد كله وكأنه جزء من أسطورة قديمة ..

أو بسباق أسطورى رهيب بين الآلة .. والرجل ..

(رجل المستحيل) ..

* * *

بدا صوت الرئيس الروسى عصبياً غاضباً للغاية ، وهو يهتف بوزير الدفاع :

- ما الذى يحدث عندك بالضبط ياجنرال ؟! صوت الانفجارات يبدو أشبه بحرب تحدث ، على مسافة قريبة من (موسكو) .. العاصمة .. أين رجالك بالضبط ؟! أين سيطرتك على الأمور .

قال وزير الدفاع فى عصبية متوترة :

- سنرسل إحدى فرقنا فوراً يا سيادة الرئيس ، و ...

قاطعه الرئيس فى حدة مستنكرة :

- سنرسل ؟! إننى أسمع دوى الانفجارات من مكتبى يا رجل ، وكلنا نرى وهج النيران ، وأنت لم ترسل فرقك وقواتك بعد ؟! ماذا تنتظر بالله عليك يا رجل ؟! أن تواجه جيشاً يسعى لاحتلال (موسكو) ..

زفر الوزير فى توتر ، قائلاً :

- لا علاقة للأمر بالجيوش والاحتلال يا سيادة الرئيس .. إنها حرب عصابات على الأرجح .

هتف الرئيس بدهشة :

- حرب ماذا ؟!

أجابه وزير الدفاع الروسى ،فى عصبية واضحة :

- المنطقة التى تحدث عندها الانفجارات ، هى مقر (إيفان إيفانوفيتش) يا سيادة الرئيس .

قال الرئيس الروسى بدهشة أكبر :

- (إيفانوفيتش) ؟! أهو رجل المخابرات السابق ، الذى كان يرأس فرق مكافحة الإرهاب ، فى النظام القديم ؟!

أجاب وزير الدفاع :

- بالضبط يا سيادة الرئيس .. لقد تم فصله من الخدمة ، فى ظل النظام الجديد ، فتحول إلى عالم الجريمة المنظمة ، وأنشأ منظمة (المافيا) الجديدة ، و ...

قاطعة الرئيس الروسى بغضب هادر :

- ومنذ متى حدث هذا ؟ !

ازدرد الوزير لعابه ، وتمتم فى توتر شديد :

- منذ مايقرب من خمسة أعوام يا سيادة الرئيس .

صرخ الرئيس ، بكل غضب الدنيا :

- خمسة أعوام ؟! خمسة أعوام ، دون أن يصل تقرير رسمى واحد بهذا ؟!

غمغم الوزير :

- إنها مسئولية الـ ...

قاطعه الرئيس فى صرامة غاضبة :

- سنجرى تحقيقًا شاملاً فى هذا الشأن يا رجل .. وسيكون تحقيقًا من أخطر ما شهدته (روسيا) ، فى عهديها القديم والجديد .. وأقسم أن يدفع كل مسئول الثمن غاليًا .. أما الآن ، فاعمل على إيقاف



لقد كانت السيارة الكهربية تنطلق بسرعتها ، و (إيفانوفيتش) داخلها ، يطلق رصاصاته على (أدهم) ..

ما يحدث بأية وسيلة .. ويكفى سكان (موسكو) ما أصابهم من فزع وقهر ، خلال الأعوام الماضية ..

قالها ، وأنهى الاتصال بعنف ، على نحو يوحى بأن الفترة القادمة ، من تاريخ (روسيا) ، ستشهد تغيرات حاسمة عنيفة ..

تغيرات تحمل بصمة أبطال من وطن آخر ..

من (مصر) ..

* * *

لا أحد فى الدنيا كلها ، يمكن أن يجد تفسيرًا منطقيًا ، لما حدث فى تلك اللحظات الأخيرة ، فى الممر السرى ، أسفل قصر (إيفانوفيتش) .

لقد كانت السيارة الكهربية تنطلق بسرعتها ، و (إيفانوفيتش) داخلها ، يطلق رصاصاته على (أدهم) ، الذى يحمل إصابة رهيبة ، فى رئته اليمنى ، مع ضعف شامل ، فى كل أجهزته الحيوية ، وفقًا لتقارير الأطباء الرسمية ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد كان يعدو بسرعة رهيبة ..

وبإرادة مذهلة ..

إرادة من الفولاذ ..

أو أشد صلابة ..

الدماء كانت تنزف داخل رئته ..

وخارجها

وجسده الذى خاض الأهوال ، خلال تاريخه الطويل ، يستنزف آخر قدراته وطاقاته ..

آخرها على الإطلاق ..

ولقد اخترقت رصاصات (إيفانوفيتش) كتفه الأيسر أيضًا ..

ولكن لم يتوقف ..

فعلى العكس تمامًا ، وخلافًا لكل القواعد العلمية والمنطقية والعقلانية ، تضاعفت سرعته ، على نحو مذهل ، مدفوعة بطاقة هائلة ، انطلقت من أعمق أعماقه ..

طاقة الغضب ..

كل الغضب ..

وبهذه الطاقة الرهيبة ، وثب (أدهم) ..

كانت وثبته هائلة مذهلة ، حتى إن (إيفانوفيتش) لم يصدّق عينيه ، اللتين اتسعتا عن آخرهما ، وأصابعه تتجمد على زناد مسدسه ..

وقبل أن يفيق من ذهوله ، ارتطم بـ (أدهم) فى عنف ، وهو يهتف :

- لن تفعلها أيها الوغد .

اشتبك معه (إيفانوفيتش) فى عنف واستماتة ، وهو يصرخ :

لن تفعلها يا (أدهم) .. لن تمنعنى من الفرار ..
أنا (إيفان إيفانوفيتش) ، زعيم أقوى تنظيم عرفه التاريخ .

صاح به (أدهم) ، وهو يلكمه فى فكه بقوة :

ـ بل أنت مجرد قطعة من القذارة ، لم تجد طريقها إلى الجحيم بعد .

صرخ (إيفانوفيتش) ، وهو يلكمه فى صدره بكل قوته :

ـ بل أنا الزعيم .. أقوى زعماء العالم .

كانت لكماته أشبه برصاصات ، تحمل أعنف آلام شعر بها (أدهم) فى حياته ، وهى تهوى على موضع إصابته مباشرة ، فى عنف وقوة يكفيان لتمزيق رئتيه تمزيقًا ، بلا هوادة ..
أو رحمة ..

وتفجَّرت الدماء فى غزارة ، من جرح (أدهم) وفمه ..

وأدرك (إيفانوفيتش) مايحدث ، فواصل لكماته القوية فى الموضع ذاته ، وهو يصرخ بجنون :

ـ أنا الزعيم .. أنا الزعيم ..

ولكن فجأة ، تجاوزت السيارة الكهربائية الممر .

ودون أن يخفض (إيفانوفيتش) من سرعتها ، كما ينبغى ..

لذا ، فقد اقتحمت المخرج فجأة ، بمنتهى القوة والعنف ، ووثبت من الممر إلى العالم الخارجى ، خارج الأسوار الخلفية ، وعلى بعد مائتى متر منها ، وطارت فى الهواء لخمسة أمتار ، مع شدة اندفاعها ، قبل أن تسقط أرضًا ، وترتطم بالجليد فى قوة ، وتلقى راكبيها حولها بمنتهى العنف ..

ومن بعيد ، لمح (علاء) و (ريهام) مايحدث ، وهتفت الأخيرة فى دهشة :

- ما هذا بالضبط ؟!

صاح (شريف) ، وهو يفتح لهما باب السيارة :

- رباه ! إنه الأستاذ .. أسرعوا .. أسرعوا بالله عليكم .

أما (إيفانوفيتش) ، فقد ارتطم بالجليد فى عنف ، وتدرج فوقه لمترين أو ثلاثة ، قبل أن يستعيد توازنه ..

ثم أدرك فجأة ، أنه مازال يمسك مسدسه ، فهبّ واقفًا على قدميه ، وهو يصرخ :

- خسرت يا أد ...

قبل أن يتمّ عبارته ، اختنقت الكلمات فى حلقه دفعة واحدة ، واتسعت عيناه عن آخرهما بشدة وهلع ..

فهناك ، على بعد خمسة أمتار منه فحسب ، كان (أدهم) يقف ، والدماء تغرق صدره ونصف وجهه ، ولكنه يمسك مسدسه ، ويصوّبه إليه بمنتهى العزم والصرامة والغضب .. كل الغضب ..

ولثوان ، راودت (إيفانوفيتش) فكرة إطلاق النار ..

ولكن عقله استعاد كل ما قرأه عن (أدهم) ..

كل حدث ..

كل جملة ..

كل كلمة ..

بل وكل حرف ..

وتراجع تمامًا عن فكرة المواجهة المباشرة ..

صحيح أن (أدهم) ، الذى يقف فى مواجهته ، رجل يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، من فرط تهالكه وإصاباته ..

ولكن ما فعله ، منذ ثوان قليلة ، يؤكد أنه مازالت هناك طاقة هائلة ، كامنة فى أعماقه ..

طاقة تكفى ليطلق نيران مسدسه ، فى ذلك الجزء من الثانية ، الذى اشتهر به ، فينسف مخه ، قبل أن يضغط زناد مسدسه ..

ولم تكن هناك سوى وسيلة واحدة لمواجهة الموقف ..

وسيلة تتفق مع طبيعة (أدهم) وشخصيته .. تمامًا ..

وبكل قوته ، ألقى (إيفانوفيتش) مسدسه بعيدًا ، وهو يهتف :

ـ فليكن يا (أدهم) .. أنا استسلم .

ظلّ (أدهم) صامتًا ، يرمقه بتلك النظرة الغاضبة الصارمة ، فتابع فى عصبية :

ـ إنك لن تُطلق النار على رجل أعزل .. طوال تاريخك كله لم تفعل هذا قط .. ها أنذا .. أعزل من السلاح تمامًا ، وأنت لن تفعلها .. لقد قرأت تاريخك جيدًا .

قال (أدهم) بصرامة شديدة ، على الرغم من أنه يقف على قدميه بصعوبة :

ـ لقد انتهى أمرك يا (إيفان) .

لوّح الروسى بيده ، قائلاً فى عصبية :

ـ ربما الآن فحسب أيها المصرى .. (روسيا) لم تعد كسابق عهدها .. هناك قلقون ، ومحلمون ، ومسئولون يمكن رشوتهم وشراؤهم .. إنهم سيضعوننى فى السجن حتمًا ، وسأقضى عامًا أو عامين ، ولكننى سأخرج إلى الحرية فى النهاية ، وكل شىء يمكن أن يعاد بناؤه .. كل شىء .

كرز (أدهم) ، وهو يستنفر كل ماتبقى من قوته للصمود :

ـ خطأ .. لقد انتهى أمرك هنا يا (إيفان) .

هتف (إيفانوفيتش) بعصبية أكثر :

ـ هراء .. إنك لن تقتلنى .. لقد هزمت منظمتى .. أنا أعترف بهذا ، ولكنك ستظلّ كما أنت .. لن تقتل رجلاً أعزل أبدًا .

قال (أدهم) ، بكل صرامة وغضب الدنيا :

ـ ديننا يقول : إن من قتل يُقتل يا (إيفان) .. وأنت أرقت أنهارًا من الدم ، دون مبرّر أو منطق ، اللهم إلا رغبتك فى التفوق والسيطرة ، أو فى المزيد والمزيد من الثراء .

لوّح (إيفانوفيتش) بذراعه ، صائحًا :

ـ أنت تعلم أنها ضروريات .. مجرد ضروريات .. وتعلم أيضًا أنك لن تقتل آدميًا أعزل .. أليس كذلك ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، ومرّت بذهنه صور (جيهان) و (نادية) ، و(بترو) ، قبل أن يضغط أسنانه ، ويجذب إبرة مسدسه ، قائلاً :

ـ ومن قال إنك آدمى يا (إيفان) ؟! أنت مجرّد وحش دموى كاسر ..

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يضيف بغضب هادر ثائر رهيب ، ينبعث من أعمق أعماقه :

ـ وحش يستحق الموت .

تراجع (إيفانوفيتش) ، واتسعت عيناه فى رعب ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا !!!!! .

وانطلقت رصاصات (أدهم) ..

كل ماتبقى فى خزانة المسدس الذى يحمله من رصاصات ..

واخترقت كلها جسد (إيفانوفيتش) ..

وانتزعته من مكانه ..

بل اقتلعته اقتلاعا ، بمنتهى العنف ..

وهوى الأب الروحى الروسى على ثلوج (موسكو) ، وتدفقت دماء الحياة من جثته فى غزارة ، ونظرة الرعب والذهول مازالت محفورة فى ملامحه ..

ومع سقوطه ، أفلت (أدهم) مسدسه ، وهو يتمتم :

- اذهب إلى الجحيم .

ثم تهاوى جسده بدوره على الثلوج ..

وبكل رعبها ، صرخت (ريهام) ، و (شريف) يوقف السيارة :

- لا مستحيل .

انطلق ثلاثتهم يعدون ، بكل رعب الدنيا ، نحو أستاذهم ، الذى استرخى جسده المغطى بالدم على الجليد ، على نحو لايوحى قط بالحياة ..

وبكل هلعه ، صرخ (علاء) :

- إننا نحتاج إلى إسعاف عاجل .. افعل شيئاً يا (شريف) .. أرجوك .

بكت (ريهام) فى حرارة ، وهى تحاول إسعاف (أدهم) ، فى حين تراجع (شريف) ، وهو يهتف فى هلع :

- وماذا يمكننى أن أفعل ؟! ماذا يمكننى أن أفعل ؟!

لم تكد عبارته تكتمل ، حتى ظهرت طائرة

الهليوكوبتر الضخمة فى السماء ، وارتفع هدير مراوحها بمنتهى القوة ، ثم ظهرت خلفها طائرات هليوكوبتر حربية أخرى ..

وفى تحفز ، التف الأبطال الثلاثة حول جسد أستاذهم ، وارتفعت مدافعهم لحمايته والذود عنه ، حتى ولو دفعوا حياتهم ثمنًا لهذا ..

ثم هتف (شريف) فى دهشة ، وهو يشير إلى العلامة الحمراء والبيضاء الكبيرة ، على جانب الهليوكوبتر :

ـ يا إلهى ! إنها هليوكوبتر إسعاف .. رباه .. أسرعوا بالله عليكم .. أسرعوا .

وفى الهليوكوبتر ، صاح (سيرجى) فى ارتياع :

ـ رباه .. هل وصلنا بعد فوات الأوان ؟!

لم تكن الهليوكوبتر قد استقرت على الجليد بعد ، عندما وثب منها رجل متوسط الطول ، يرتدى معطفًا

سميكًا ، من طراز روسى الصنع ، لم ينجح فى إخفاء ملامحه المصرية ، على الرغم من الشارب واللحية القصيرين ، ولقد بدا شديد الذعر والارتياع ، وهو يعدو نحو (أدهم) صائحًا بالعربية ، وهو يحمل حقيبته الطبية :

ـ رباه ! رباه ! رباه !

هتفت به (ريهام)

ـ أنت طبيب مصرى !

هتف الرجل ، وهو يبدأ فى فحص (أدهم) بالفعل :

ـ أنا الدكتور (أحمد صبرى) .. أستاذ جراحة المخ والأعصاب .

ثم ارتجفت شفتاه ، وهو يضيف بصوت كالبكاء :

- شقيقه .

اتسعت عيون الأبطال الثلاثة فى دهشة ، وهم يتابعون فحصه لجسد (أدهم) ، فى حين اندفع (سيرجى) نحوهم ، وهو يسأله فى لهفة قلقة :

- كيف هو ؟!

هتف الدكتور (أحمد صبرى) فى لوعة :

- حالته سيئة للغاية يا سيِّد (سيرجى) .. إنه يلفظ أنفاسه الأخيرة تقريبًا .. لابد أن ننقله إلى أقرب مستشفى ، بأقصى سرعة ممكنة .

امتقع وجه (سيرجى) ، واستدار إلى رجال هليوكوبتر الإسعاف ، صارخًا :

- ماذا تنتظرون ؟! أسرعوا بالله عليكم .

انحدرت دموع الدكتور (أحمد صبرى) فى غزارة ، وهو يتعاون مع الكل ، على نقل (أدهم) إلى الهليوكوبتر الطبية الميدانية المجهَّزة ، هاتفًا :

- لا تذهب يا (أدهم) .. أرجوك .. لا تذهب .

سألته (ريهلم) فى توتر بالغ ، ودموعها تغرق وجهها بدورها :

- هل .. هل سينجو ؟!

وثب الدكتور (أحمد صبرى) داخل الهليوكوبتر ، التى لم تتسع للباقين ، وهو يقول فى أسى ومرارة :

- لا أحد يمكنه الجزم .. إنها أسوأ حالة رأيته عليها ، فى حياتنا كلها ، وكل ما نملكه الآن هو الدعاء لله (سبحانه وتعالى) ، أن يبقى على حياته .

ودارت مراوح الهليوكوبتر ، وهى ترتفع عن الأرض ، والدكتور (أحمد صبرى) يضيف باكيًا ، بكل حزن وحسرة ومرارة ولوعة الدنيا :

- وألا تكون هذه نهايته .

ارتجفت شفتا (ريهام) ، وهى تتراجع قائلة فى حزم ، من وسط دموعها الغزيرة :

ـ محال .

وعندما ارتفعت الهليوكوبتر ، حاملة جسد أستاذهم ، خفقت قلوب الأبطال الثلاثة فى عنف ، وتصاعدت فى أعماقهم طاقة هائلة من الحزن ، تحولت بغتة إلى وقفة ممشوقة متماسكة ، وتحية عسكرية قوية ، أدوها بكل ذرة من كيانهم ، تحية لأستاذهم ، ومثلهم الأعلى ...

وفى أعماق كل منهم ، ، كانت هناك ثقة بأنه من المحال أن تكون هذه هى النهاية ..

فأيًا كانت النتائج ..

وأيًا كان المصير .. فأستاذهم (أدهم صبرى) لن يموت ..

و (رجل المستحيل) لن ينتهى ..

هذا لأن (أدهم صبرى) ليس مجرد رجل .. إنه أسطورة ..

والأساطير لاتنتهى ولاتموت ..

أبدًا .

* * *

تمت بحمد الله